المجموعة الفريدة  لأربع رسائل مفيدة

رسالة

التَّوْحِيدِ

تأليف الشَّيخ

عبدِ الرَّحمنِ بن يوسُفَ عبدِ الصَّمدِ

المتوفَّى سنة (١٤٠٨) رحمه الله تعالى

تقديم وتعليق

إبراهيمَ بن حَمِيدِ السَّاجرِ

المجموعة الفريدة ١ لأربع رسائل مفيدة



رسالة التوحيد

تأليف الشَّيخ

عبدِ الرَّحمنِ بن يوسُفَ عبدِ الصَّمدِ

المتوفَّى سنة (١٤٠٨) رحمه الله تعالى

تقديم وتعليق

إبراهيمَ بن حَمِيدِ السَّاجرِ

جمعيَّة إحياء التُّراث الإسلاميِّ

الطَّبعة الأولى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م

* استأذنتُ الشَّيخ إبراهيم السَّاجر - وفقه الله - بجعل الكتابِ الأصل (المجموعة الفريدة) أو جزءٍ منه على هيئة كتاب الكترونيٍّ مصوَّر رجاء نوال دعوته الَّتي دعا في الصَّفحة (١٦) من هذا الكتاب، فأذِن بذلك - جزاه الله خيرًا - وحثَّني على تذكير المسلمين والنُّصح لهم. [مصوِّر الكتاب / غُرَّة ذي القَعدة ١٤٤٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء . . .

إلى ورثة الأنبياء دعاة التوحيد - العلماء - .

إلى الذين يصلِّي الله تعالى عليهم وملائكته وحتى النملة في الجحر والحيتان في لجج البحر .

إلى من يستغفر لهم من في السموات ومن في الأرض[1] .

وإلى كل من خاف الله فيهم ، فارْعوَى . . .

فكفّ عن أكل لحومهم واستباحة حماهم وعلم :

«إن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وإنَّ من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب»[2] .

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3] .

إلى كل هؤلاء ، نقدم هذه الرسالة :

«رسالة التوحيد» .

و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[4] .

---

(١) انظر الحديثين رقم (١٨٣٨) و(٦٢٩٧) من صحيح الجامع الصغير .

(٢) أورده الإمام النووي رحمه الله في كتاب «التبيان في آداب حملة القرآن» ص ٢٥ عن الحافظ بن عساكر رحمه الله .

(٣) سورة النور آية رقم ٦٣ .

(٤) سورة ق آية رقم (٣٧) .

بسم الله الرحمن الرحيم

«توطئة بين يدي رسالة التوحيد»

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، قالت : جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي . فقال لها رسول الله ﷺ : «**من أنت؟**» قالت : أنا جثامة المزنّية . قال : «**بل أنت حسّانة المزنية ، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟**» . قالت : بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! .

فلما خرجت ، قلت : يا رسول الله ، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ! فقال : «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان**»[1] .

فإحياء للسنة وقمعاً للبدعة ، وعملاً بهذا الحديث الشريف المنيف ، ولنصيحة مباركة ميمونة من أخ فاضل[2] مضت في مقدمة رسالة «**زبدة الكلام في تحريم حلق اللحية في الإسلام**»[3] ولأن حسن العهد من الإيمان كما في قوله ﷺ الآنف ذكره .

رأينا إعادة طبع رسالة التوحيد منفصلة ، بعد أن كانت مدرجة ضمن رسالة «**المقتصد**» تسهيلاً وتيسيراً لكل من رام نفعاً أو طلب علماً فإنها على وجازتها

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٢١٦ .

(٢) هو أخونا الكريم فضيلة الشيخ «**حمد الأمير أبو صالح**» بارك الله فيه ، ورضي عنه ، ووفقه لكل عمل صالح .

(٣) التي طبعتها «**دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع**» ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

وبساطتها فيها من الذخائر السلفية ما فيها - ومن ذاق عرف - كما قيل ، أو «من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[1] .

فقد كان الشيخ رحمه الله دأبه الدعوة إلى التوحيد في دروسه ، ومواعظه وطرائفه[2] ، ومجالسه ، وشغله الشاغل فيها هو التوحيد ، بل حياته كانت وقفا لتحقيق التوحيد ، ولست مبالغا إن قلت : إن شأنه كله مع التوحيد ، ويدور في فلك التوحيد ، وما هذا إلا لعظيم أهمية التوحيد ، ولأنه حقاً - أي التوحيد - هو المحور الأساسي لشريعة الإسلام فالتوحيد قبل كل شيء ، والتوحيد بعد كل شيء ، والتوحيد فوق كل شيء . . بل إن الشيخ رحمه الله تعالى كان ينعى ويعتب أشد العتب - وقد تصفوا المودة بالعتاب - على كل من : «**لا يفرق بين الشرك والتوحيد ، ولا بين السنة والبدعة ، ولا بين الحديث الصحيح والحديث الضعيف**» .

فهو رحمه الله تعالى يرى - وحقاً ما كان يرى - أن من أولى الأولويات التوحيد ، وكذا إخوانه السلفيين ومشايخه كالألباني وابن باز وسواهما رحم الله الجميع ، فلسان حالهم وقالهم دائماً يردد ويقول : «**يا أيها المسلمون التوحيد أولاً وآخراً وقبل كل شيء لو كنتم يا قومنا تعلمون**» .

أجلْ ، إنَّ التوحيد ، دأب السلف الصالح من قبل ومن بعد ، وديدنهم وهجيراهم ، التوحيد ، التوحيد ، والوصية بالتوحيد ، والأمثلة على ذلك كثيرة ،

---

(١) منسوب لأبي عبدالله محمد بن عمر الرازي كما في «**شرح العقيدة الطحاوية**» صفحة ٢٠٩ .

(٢) ومنها هذه النادرة المعاصرة التي كثيراً ما يتندر بها لأهمية مغزاها وهي : أن قوماً ركبوا بسفينة فلما أضحت في عرض البحر هاج البحر بهم وماج وتلاطمت فيهم الأمواج . وأيقنوا الهلاك ، وإذا بهم يجأرون مستنجدين بالأولياء «يا عبدالقادر ، يا جيلاني ، يا باز ، يا بدوي ، يا ساكن طنطا ، يا دسوقي ، يا رفاعي . .» وكان معهم شخص أنار الله قلبه بالتوحيد ، فقال : يا رب غرّق . غرّق ، نسيوك اللهم نسيوك . .؟!!

وكثيرة جداً ، منها ما أوصى به عبدالقادر الجيلاني رحمه الله ابنه قُبيْل وفاته حيث قال : «عليك بتقوى الله عز وجل ، وطاعته ، ولا تخف سوى الله ، ولا ترج أحداً سوى الله ، وكل الحوائج كلّها إلى الله عز وجل ، واطلبها جميعاً منه ، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل ، ولا تعتمد إلاّ عليه سبحانه . وعليك بالتوحيد ، التوحيد ، التوحيد ، جماع الكل التوحيد»[(١)] .

وما تكرار الوصاة بالتوحيد ، على هذا النحو ، إلاّ لتقديرهم للتوحيد حق قدره ، وتعظيمهم في صدورهم أمره ، وهذا أنصع بيان ، وأصدق برهان على عمق علم السلف ، الذي أشار إليه الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله في كتاب «**التوحيد**» .

وهذا ما هو إلا تطبيق عملي لهديه ﷺ ، وكما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، لما بعث النبي ﷺ معاذاً إلى نحو أهل اليمن ، قال له : «**إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله . . الحديث**»[(٢)] .

ومن عظيم ثمار التوحيد وآثاره إذا أردنا عوداً أحمداً لحياة العز والشرف والأمجاد ، والسِّيادة والرِّيادة ، واستئناف الحياة الإسلامية الآمنة في أرض الله ، وسرّنا التخلي عن هذه الانهزامية المقيتة ، والتماوت المشين ، والتبعية المزرية[(٣)] ، ثم كنا صادقين مع

---

(١) انظر كتاب أعلام المسلمين لـ «عبدالقادر الجيلاني» صفحة (٢٦٧) . للدكتور عبدالرزاق الكيلاني .

(٢) البخاري - كتاب التوحيد - باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى .

(٣) فمن الصدارة هوينا للحضيض كأنا ذهلنا عن قول قائلنا :

ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا ... ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

نعوذ بالله من الخذلان ومن هذه الذيلية التي ليس لها من دون الله كاشفة .

أنفسنا ، ومخلصين لديننا ، وناصحين لأمتنا ، فعلينا بالتوحيد ، ومحاربة الإشراك بكل صوره وجميع مظاهره ، إيماناً واستبشاراً واعتقاداً وتصديقاً بقول مولانا سبحانه في محكم التنزيل : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1] .

فهذا كله من بركات التوحيد ، أما الشرك فعلى النقيض من ذلك لهذا حذر النبي ﷺ منه أيما تحذير ، وزجر من مقاربته مهما كلف ذلك من ثمن كما في قوله ﷺ : «**لا تشرك بالله شيئاً وإن قُطِّعْتَ وحُرِّقْتَ . . الحديث**»[2] .

هذا وإنَّ أمتنا لمَّا اعتصمت بحبل الله ، وتمسكت بالتوحيد تمسك المخلصين غدت عزيزة قوية منيعة مهابة . . . ثم إنها بعدئذ ذلت وضعفت واستكانت شيئاً فشيئاً لما تخلَّت عن التوحيد شيئاً فشيئاً . .

إذاً فالأمة في صحة وسلامة وعافية ، ما كان التوحيد فيها سليما صافياً نقيّاً ، ولم تخالطه الشوائب والأكدار ، وأما إذا ضيعت أمة التوحيدِ ، التوحيدَ ، فقد ضيعت ذاتها بل وضيعت كل شيء ، وخسرت كل شيء ، وهذا هو الخسران المبين .

فهذه نتائج ظاهرة متضافرة فاظفر بها وتأملها وقر بها عيناً ، هدانا الله وإياك إلى سواء السبيل .

وإن من الجهل كل الجهل ، والضلال كل الضلال ، والرزية كل الرزية ، تنحية التوحيد عن الصدارة ، أو تهميش شأنه ، واعتباره من الأمور العادية أو الثانوية ،

---

(١) سورة النور آية رقم ٥٥ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٧٣٣٩ .

متعللين بأن البداءة به تنفرّ الناس ، وتمزق صفهم ، وتفرق جماعتهم . . . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴾[1] .

لكنهم هكذا زعموا ، وبئس ما زعموا : «وبئس مطية الرجل زعموا» كما جاء عنه ﷺ[2] ولله در القائل :

والجهل داء قاتل وشفاؤه   أمران في التركيب متفقان

نص من القرآن أو من سنة   وطبيب ذاك العالم الرباني[3]

وختاماً لهذه المقدمة لابد لي من كلمة ، وهي : إن دعوة التوحيد سبيلها ليس سهلاً ممهدا أو طريقا معبداً مفروشا بالأزهار والديباج والرياحين فطريقها يا صاح وعر المرتقى ومسلكها شائك صعب جداً - ولابد دون الشهد من إبر النحل - فهي على سناها وجلاء معناها ، وطيب ثمارها وجناها . . فإن أعداءها أكثر من الهم على القلب ، في هذا الزمن . فمنهم مثلاً : الكافرون الزنادقة الملحدون - ومَنْ هَمُّهم هدم الدين وتمزيق بلاد المسلمين - والمبتدعون والصوفيون ، والقبوريون ، وأهل الفنون والمجون المنحرفون ، والمستغربون ، والمستشرقون ، ، والمتفرنجون ، والفلاسفة ، والمفسدون ومن تبعهم من الفاسدين ، والمثقفون العصريون ، وأهل العاجلة الطامعون ، وأهل الانحلال والضلال الزائغون ، وجميع المارقين على مبادئ الأخلاق والدين ، وغيرهم وغيرهم ، من جنود إبليس أجمعين .

فهؤلاء كلهم ومن على شاكلتهم من طوابير الشر ، يتململون من دعوة

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٥ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٨٤٦ .

(٣) النونية لابن قيم الجوزية «رحمه الله» .

التوحيد، تململ السليم في فراشه، أو كمن يمشي على جمر الغضى. فهم يرونها عشىً في عيونهم، وغصةً في حلوقهم، وشجىً في صدورهم.

لأنها تقضُّ عليهم مضاجعهم الراغدة، وتأتي على مكاسبهم الفاسدة، ومصالحهم البائدة، وآمالهم الواعدة.

لذلك استدبروها، وصدوا عنها، وحاربوها، ورموها كلهم عن قوس واحدة مصداقاً لقوله تعالى: **﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾**[1].

بل إنّ أعداء دعوة التوحيد في هذا الزمن، افتاتوا عليها وزوّروا لها أسوأ وأشنع التهم «إرهاب، إفساد، تطرف، رجعية، أصولية، تخلف...» هذا وقد نال ورثة الأنبياء - دعاة التوحيد - العلماء، منْ هذه القسمة الضِّيزىَ ما نالهم!!!...

إذاً فهذه سنة الله سبحانه في أنبيائه وأوليائه ومن سار على نهجهم واقتفى أثرهم، ولقد عناها ورقة بن نوفل رضي الله عنه[2] لما خاطب النبي ﷺ في القصة المشهورة بقوله: «**لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي**»[3].

لذا فإن الشيخ رحمه الله لتقرير ما كان يعتقد به ويدعو إليه كَتَبَ رسالة التوحيد هذه، التي نرجو أن تكون من العلم النافع في الحياة ولا تنقطع مثوبته بعد الممات.

فهي على وجازتها كثيرة الفائدة جداً - كيف لا وهي سلفية المبتدأ والمنتهى - وجديرة بأن يعتنى بها طباعةً وتحقيقاً وتخريجاً وتوزيعاً ودراسةً وتدريساً، لأنها تجلو العمى والغي بالبرهان.

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ٣١.

(٢) قال ﷺ: «**لا تسبوا ورقة بن نوفل فإني رأيت له جنة أو جنتين**» صحيح الجامع الصغير ٧٣٢٠.

(٣) البخاري - كتاب بدء الوحي، حديث رقم ٣.

وختاماً نبتهل إلى مولانا جل جلاله أن يجعل هذه الرسالة خالصة لوجهه الكريم ، ونرجوه وحده برها وذخرها يوم الدين ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[1] .

ونسأله سبحانه أن يتقبلها ويجزل أجر مؤلفها . وينفع بها عباد الله المسلمين ، والله يجزي خيراً كل من سعى لتعميم النفع بها .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

وكتبه/ إبراهيم بن حميد الساجر

«أبو عبدالرحمن»

---

(١) سورة الشعراء آية رقم ٨٨ ، ٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

«مقدمة المؤلف لرسالة التوحيد»

إن الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، وبعد :

فأيما إنسان ، يقف وقفة هادئة حالمة منصفة ، ملؤها التفكر والاعتبار ، يخلو فيها بينه وبين نفسه ، بعيداً عن مشاغل الحياة ومتاعبها وهمومها ، ويلقي نظرة فاحصة على جنبات الوجود ، في هذا الكون الفسيح المترامي الأطراف

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٧٠ ، ٧١ .

البديع الصنع ، فيرى السماوات ، وما فيها من نجوم وشمس وقمر وما بينها وبين الأرض من فضاء وهواء وسحاب مسخر ، وليل ونهار وبرق ورعد وصواعق وزوابع وأعاصير ، ويرى الأرضين وما فيها من بحار وأنهار وبحيرات وجداول وعيون ومستنقعات وجبال وتلال ومرتفعات وسهول ووديان وصحاريّ وقفار وسبل وممرات ومضايق ، ومن زروع وثمار وأشجار وبساتين وأزهار ، ومن معادن مختلفة ، ويرى جميع ما عليها من مخلوقات ، من إنس وجن وأنعام وحيوانات ووحوش وطيور ونمل ونحل ودواب وهوام وحشرات ، ثم ينعم النظر ، في نظام ذلك الكون العجيب المتكامل الهيئات والصور ، المتناسق الخلق ، في نجومه المتناثرة في جو السماء ، السيارة منها وغير السيارة ، في سراجه الوهاج المنير الذي يرسل الدفء والنور على مر الدهور ، في قمره الساطع السابح في فلكه ، دائباً دون توقف ، في الليل والنهار وكيف يتعاقبان دون تخلف؟ ! ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[1] ، في الأنهار العظيمة التي تجري منذ أوجدها الله ، وتصب ملايين الملايين من الأطنان ، ما بين كل عشية وضحاها ، ولا تزال تصب من العيون المتفجرة من جوف الأرض ، منذ بدء الخليقة ، وإلى يومنا هذا ، لا تغيض ولا تنضب ، في مجموعة الكائنات الحية على اختلاف أنواعها وأشكالها وشتّى صورها وألوانها واختلاف ألسنتها ، ولغاتها وأصواتها ، وما أودع الله فيها من جمال في الصورة ، وإبداع في الخلقة ، وإحكام في الصنع ، وكيف تعرف مستقرها ومستودعها ! . . ثم تأوي إليه ، وكيف تقوم بتنظيم شؤونها ، وبناء بيوتها وأكنانها وأعشاشها وحفر أوكارها ، والكيفية التي تكتسب بها معايشها

---

(١) سورة يس آية رقم ٤٠ .

وتحصل فيها أقواتها ، وكيف تدافع عن نفسها وأولادها وجماعتها ، وكيف تقوم بتربيتهم وتنشئتهم وإصلاح شؤونهم؟ ! ! يدرك بفطرته أنَّ لهذا الكون خالقاً ومدبراً وموجداً له من العدم .

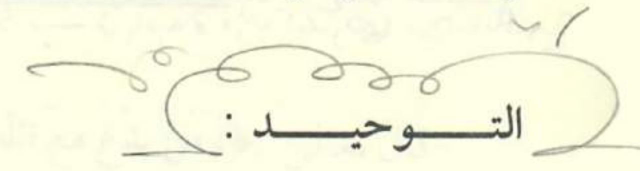
ثم إذا أنعم النظر ثانية ، في جميع تلك المخلوقات العظيمة على اختلافها ، يجد الإنسان نفسه بأنه من أكبرها عقلاً وأعظمها تفكيراً وأحسنها خَلقاً وخُلُقاً ، ومن أجلها قدراً ، ومن أشدها حساسية وتدبيراً للأمور ، وأنه هو المكرم على جميعها .

ثم إذا أتبع النظرتين الأوليين نظرة ثالثة ، يجد أن جميع تلك المخلوقات العظيمة الهائلة علويها وسفليها مُسَخَّرة له .

وهذا هو شأن العظماء والعقلاء ذوي الفطرة السليمة ، يُنعِمون النظر في أنفسهم ، ويتفكرون فيما حولهم ، من مخلوقات فيدركون تمام الإدراك ، أنَّ هذا الخلق لم يكن على سبيل الصدفة أبداً ، وأنَّ الذي أوجده من العدم ، أوجده عن إرادة ومشيئة وتقدير ، وعندما يرون أنَّ هذا الخالق العظيم قد فضلهم وكرمهم على جميع مخلوقاته ، ثم سخرها جميعاً لهم ، كان لزاماً عليهم ، أن يوجبوا على أنفسهم التعرف على هذا الخالق العظيم ، والرب الكبير ، والمنعم الكريم ، ويفرضوا عليها ولاءه وتعظيمه وطاعته والاستسلام والخضوع لسلطانه وجبروته ، مع كامل الذل وكامل المحبة وكامل الرضى ، ويلزموها حمده وشكره والثناء عليه وتعظيمه ، لتكريمه لهم ، ولتفضيله إياهم على سائر مخلوقاته ، ولِمَا أولاهم من النعم التي لا تعد ولا تحصى .

وهذه المذكورات تسمى بـ« **العبادة** » التي هي همزة الوصل بين الخلق وخالقهم ، والعروة الوثقى بين العباد وربهم ، ولَمَّا كانت العبادة يعوزها النظام ،

والإنسان بطبيعته وعلى ما أوْلاه الله من مواهب ، وآتاه من نعم،عاجز كل العجز عن وضع هذا النظام الذي يربطه بربه جل وعلا ، لأن الله غيب ، فلذلك اقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل ، وينزل الكتب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة للعالمين.ومعلومٌ أن مفتاح الدعوات الإلهية هي معرفة الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وأفعاله المجيدة ، التي هي خلاصة دعوة الأنبياء ، ولَمَّا كانت هذه المعرفة متضمنة لكمال التوحيد الذي هو قطب رحى الرسالات والحق الذي قامت به الأرض والسموات ، والأساس الذي بنيت عليه دعوة الأنبياء ، أحببت أن أبدأ به ، فأقول : وبالله التوفيق وعليه التكلان .



التوحيد :

مدلوله اللغوي : تقول العرب وَحَّدَهُ توحيداً ، جَعَلَه واحداً ، والوحدة هي الانفراد بالشيء ، ووحّد الشيء توحيداً جعله واحداً ، واعتقد أنه واحد ، وخلاصة البحث أن مادة (وحد) تدور حول انفراد الشيء بذاته أو بصفاته أو بأفعاله وعدم وجود نظير له فيما هو واحد فيه .

أصل التوحيد : هو اعتقاد أن الله واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أسمائه ، واحد في أفعاله ، وجعله قولاً وعملاً واعتقاداً واحداً ، وواحداً في التوجه إليه ، بأن لا يعبد غيره ، ولا يُدْعَى سواه ، ولا يُخْشَى ويُتَّقَى إلا إياه ، ولا يتوكل إلا عليه ، وأنه هو وحده المرجع والمصدر لكل كائن ، ومُنْتَهَى كل مقصد ، ولا تُتخذ الملائكة أو النبيين أو الصالحين والأولياء والمشايخ وغيرهم أرباباً من دون الله ، يُدْعَوْنَ في الشدائد والنائبات ، أو يتخذونَ وسائط بين العباد وبين الله عز وجل ، مع العلم والاعتقاد أنهم جميعاً عبيد ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون من قطمير .

أقسام التوحيد : يقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام كلية :

١) توحيد الألوهية .
٢) توحيد الربوبيّة المتضمن «لتوحيد الحكم»
٣) توحيد الأسماء والصفات .

وجميع هذه الأقسام موجودة في سورة «الفاتحة» .

← يشير الشيخ رحمه الله إلى أن هذا التقسيم ليس محدثاً فارغاً عن شرع بل هو من استقراء النصوص وسبرها.

١) توحيد الألوهية :

تعريفه : هو إفراد الله بالعبادة ، وإخلاص الدين له وحده ، وتوحيده جل وعلا بأفعال العباد المتعبدين بها شرعاً ، ويسمى توحيد العبادة أو توحيد القصد والطلب ، وهو منسوب إلى الإله يقال : أَلِهَ ، يَأْلَهُ ، إلاهة ، وألوهة وألوهية بمعنى عَبَد عبادة ، والإلهُ المَعْبُودُ ، ولمَّا لم يكن في الوجود مَن يُعبد بحق إلا الله وحده لا شريك له ، وجب علينا أن نفرده بالعبادة ، وأن لا نصرف شيئاً منها لغيره ، وجميع الأعمال التي تعبَّدنا الله بها شرعاً ، هي حق له وحده ومقصورة عليه ، لا يشركه فيها أحد من مخلوقاته ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل . وهذا هو تحقيق قوله تعالى : ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[1] ، ومعلوم في لغة العرب ، أن المعمول إذا تقدم على العامل ، أفاد الحصر المطلق ، فبناءً على ذلك فالعبادات جميعها ، على اختلاف أنواعها مقصورة على الله وحده لا شريك له فلذلك قال : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[2] .

قوام هذا التوحيد : وقوامه أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، وأن لا نعبده إلا بما شرع ، لقوله تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[3] .

مع الاعتقاد الجازم بأن جميع العبادات حق ثابت له وحده لا شريك له ، ولا يجوز أن يصرف شيء منها لغيره البَتَّةَ ، ومن يصرف شيئاً منها لغيره ، يكنْ مشركاً كافراً .

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٢) سورة الكهف آية رقم ١١٠ .

(٣) سورة الكهف آية رقم ١١٠ .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[1] . ومعنى «يدع» : يَتَعَبَّد ، قال رسول الله ﷺ : «الدعاء هو العبادة»[2] .

العبادة :

تعريفها : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه ، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة التي تعبَّد الله بها عباده ، وجماعها أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، وأن لا نعبده إلا بما شرع ، مع تمام الذل والخضوع والاستسلام ، ومع كمال المحبة والرضى والقبول .

الإخلاص وتعريفه : فركن العبادات الأعظم هو : الإخلاص .

والإخلاص :

أ) **في لغة العرب** : «هو تنقية الشيء ، وتهذيبه وتصفيته وتخليصه من كل شائبة» .

ب) **في الشرع** : «هو أن يقصد العبد ، بكل أقواله وأفعاله وجه الله والدار الآخرة ، وعدم الالتفات إلى المَغْنَم ، أو الجاه ، أو المنصب ، أو اللقب أو ليرى مقامه ، أو ليقال ، مع تجنب الرياء لأنه يحبط الأعمال ويفسدها كما يفسد الخل العسل ، وهو بمثابة الأساس لجميع العبادات» .

فكل عبادة شرعها الله ، قد بنيت على الإخلاص تكون مقبولة ، وتنفع صاحبها عندما يلقى الله يوم القيامة ، فلذلك قالوا : العبادات جميعها على اختلافها لا تكون مقبولة إلا بشرطين اثنين لا ثالث لهما :

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ١١٧ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٣٤٠٧ .

١) أن تكون خالصة لله وحده لا شريك له ، ولا يقصد بها إلا وجهه والدار الآخرة .

٢) أن تكون صواباً ، أي مشروعة وتعمل وفق ما أمر الله به ورسوله ﷺ من غير زيادة أو نقص وعلى مقتضى نصوص الكتاب والسنة وعلى النحو الذي فعله النبي ﷺ والخلفاء والصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - قال تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[١] ، وقال ﷺ : «**وصلّوا كما رأيتموني أصلي**»[٢] .

وقال ﷺ : «**خذوا عني خذوا عني . . . الحديث**»[٣] ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم» ، وقال رضي الله عنه : «كل عبادة لم يتعبد بها النبي ﷺ وصحابته فلا تعبدوها» أهـ .

فإذا اختل شرط من هذين الشرطين المذكورين لم تصح العبادة ولم تقبل وينطبق على صاحبها قوله تعالى : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً** ﴾[٤] .

وهنا نلفت النظر بأنه إذا فقد شرط الإخلاص كان العمل رياء . . ومعلوم أن الرياء شرك والشرك محبط للعمل ولا يغفره الله جل وعلا . وإذا فقد شرط المتابعة لفعل النبي ﷺ وصحابته الكرام كانت الأعمال بدعاً ومحدثات ، وقد نهى النبي ﷺ عنها بقوله : «**إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل**

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣ .

(٢) رواه البخاري .

(٣) صحيح الجامع الصغير ٣٢١٥ .

(٤) سورة الغاشية آية رقم (٢ ، ٣ ، ٤) .

بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار»[1] . ومعلوم أيضاً أن البدع قرينة الشرك لا يغفرها الله قال رسول الله ﷺ : **«إن الله احتجر التوبة على كل صاحب بدعة»**[2] .

وفي رواية أخرى عنه ﷺ : **«إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»**[3] .

كماله وإتمامه : ولا يتم مقام هذا التوحيد ويصل إلى درجة الكمال والتمام إلا بأصلين اثنين عظيمين :

١) بصرف العبادة الخالصة والصواب لله وحده لا شريك له .

٢) وبطرح الشرك بجميع ألوانه وأشكاله .

وهذان الأصلان هما أصل الدين وقاعدته وهما قطب الرحى وعليهما مداره، وهما أساس دعوة الرسل. قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾**[4] ، وقال : **﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾**[5] ، وقال : **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[6] .

تحقيقه : ولا يتحقق هذا التوحيد ويتم ويكمل إلا بمعرفة معنى العبادة في اللغة والشرع وبمعرفة جميع أنواع العبادات التي تعبدنا الله جل وعلا بها على

---

(١) صحيح سنن النسائي رقم ١٤٨٧ .
(٢) صحيح الجامع الصغير ١٦٩٩ .
(٣) صحيح الترغيب والترهيب ٥٤ .
(٤) سورة النحل آية رقم ٣٦ .
(٥) سورة النساء آية رقم ٣٦ .
(٦) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

اختلاف أنواعها مع العلم بكيفها وكمّها ، كما وردت دون زيادة أو نقصان مع العلم الجازم بأنها جميعاً حق ثابت لله وحده ، قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[1] .

ومن مستلزمات هذا التوحيد معرفة نقيضه وهو الشرك أيضاً لنتجنبه ونبتعد عنه ليسلم لنا توحيدنا .

وإتماماً للفائدة إليك أخي المسلم تعريفاً شاملاً لمعنى العبادة وأنواعها القلبية والعملية والقولية والمالية وإليكها جميعها :

أنواع العبادات :

أ) **العبادات القلبية** : أهمها وأجلها وأعظمها شأناً الإيمان بالله ورسوله ﷺ ، ومحبته ومحبة رسوله ﷺ أكثر ممن سواهما ، ومحبة أوليائه المؤمنين ، والحب في الله ، والبغض في الله ، والغضب عند انتهاك حرمة الله ، وتعظيم شعائر الله ، والخوف منه ، والرجاء ، والخشوع ، والخشية ، والإنابة ، والإخلاص ، والإخبات ، والتوكل ، والنية الصالحة ، والصبر ، والرضا ، والذل ، والخضوع ، والاستسلام ، والانقياد ، **وغير ذلك .**

ب) **العبادات العملية** : أهمها الصلاة ، والصيام ، والحج ، والعمرة ، والجهاد في سبيل الله ، وجهاد النفس ، والهجرة ، والرحلة في طلب العلم ، وزيارة المساجد الثلاثة ، وزيارة مسجد قباء ، وزيارة الإخوان في الله ، وزيارة المرضى ، وإجابة الدعوة ، وحضور الجنائز ، وحِلَق الذكر ، وحضور الجماعة ، وحفر القبور ، وتغسيل الأموات ، وتكفينهم ، ودفنهم ، والصلاة

(١) سورة الكهف آية رقم ١١٠ .

عليهم ، وأداء الأمانة ، والمحافظة عليها ، وصلة الرحم ، وإتقان العمل ، وإماطة الأذى عن الطريق ، وبر الوالدين ، وإكرام الضيف ، وإكرام الجار ، وإكرام ذي الشيبة المسلم ، وكفالة اليتيم ، وملاطفته ، ومواساته ، والمحافظة على أمواله ، وتنميتها ، والبشاشة والابتسام بوجه الإخوان ، وبناء المساجد ، والأربطة ، والمبرات الخيرية وغير ذلك .

ج) **العبادات القولية** : أهمها الذكر ، كقراءة القرآن ، والتسبيح ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير ، والدعاء بنوعيه : (أ- دعاء السؤال والطلب . ب- دعاء الثناء والشكر) ، والصلاة على النبي ﷺ ، والكلمة الطيبة ، والدعوة إلى الله ، وصدق الحديث ، وتعليم الناس أمر دينهم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، والنصح لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، والاستعاذة ، والاستغاثة ، والاستعانة ، والحلف بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، ونحو ذلك وكذلك الفأل ، والسلام ورده . . وغير ذلك .

د) **العبادات المالية** : من أهمها الزكاة ، والصدقة ، والذبح ، والنذر ، وإطعام الطعام ، وكلفة بناء المساجد ، والمدارس ، والمعاهد الدينية ، والنفقة على معلمي الناس الخير ، والنفقة على العيال ، والأيتام ، وتجهيز المجاهدين والمرابطين في سبيل الله ، وشراء الأسلحة والعتاد للجيش ، وإعتاق الرقاب ، وإعانة المُكاتِب ، وفكُّ العاني ، وقضاء الدَّين ، وبناء البيوت ، والأربطة لأبناء السبيل ، وحفر آبار المياه ، والهدايا وغير ذلك .

جميع هذه العبادات ، حق ثابت لله وحده لا شريك له ، ولا يَشْرُكُه فيها أحدٌ لا مَلَك مُقرَّب ، ولا نبي مرسل ، قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١] .

فمن صرف منها شيئاً لغير الله كأن يدعو غير الله ، أو يستعين بغيره ، أو ينذر لغيره ، أو يحسِّن صلاته لغيره ، أو يحلف بغيره ، أو يذبح لغيره ، يكون بذلك مشركاً كافراً أعاذنا الله وإياكم من ذلك[٢] .

٢) توحيد الربوبية المتضمن «لتوحيد الحكم» :

الرب في لغة العرب : مشتق من التربية ، يقال رباه ربه وربّبه ، أنشأه حالاً فحالاً ، وطوراً فطوراً إلى حد التمام .

والرب أيضاً في اللغة : يطلق على السيد ، والمالك ، والمدبر ، والمربي ، والقيّم ، والمنعم ، بشرط أن يضاف ، كأن يقول : رب البيت ، رب الدابة ، رب العمل ونحوه .

وكلمة الربوبية : تدل على التربية ، والتنشئة ، والإنماء ، والتهيئة ، والتعهد ، والرعاية ، والكفالة ، والاستصلاح ، والجمع ، والحشد ، والعلاء ، والسيادة ، والرئاسة ، وتنفيذ الأمر ، والتصرف التام مع التملك التام ، وجميع هذه المعاني محصورة في معنى الرب ، فمن كانت هذه صفاته فهو الحاكم المطلق وله الحاكمية المطلقة على العالمين بلا منازع ، لقوله تعالى : ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا**

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) ويجْمل بالقارئ الكريم أن يعلم بأن الشيخ رحمه الله متبع للسلف في التفريق بين كفر العمل وكفر الاعتقاد ، وكفر ينقل عن الملة وكفر لا ينقل عن الملة ، وبين التكفير المطلق ، وتكفير المعين ، وكذا يفرق بين نفاق القلب ، ونفاق العمل .

ويرى أن الشرك منه أكبر ومنه أصغر ، وأن من يستحل الذنب ليس كمن لا يستحله .

كل هذا وفق الأصول والضوابط التي قررها جهابذة علماء السلف رضي الله عنهم أجمعين .

قلت : هذا لئلا يتوهم في الشيخ غير هذا ، والله أعلم .

إلاَّ إيَّاه ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] . وقال سبحانه : ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[2] . وقال : ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾[3] . وقال : ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[4] .

تعـــريفـــه :

توحيد الربوبية : هو إفراد الله جل وعلا ، بأفعال نفسه ، من خلق ، ورزق ، وإحياء ، وإماته ، وحشر ، ونشر ، وتسخير ، وإيجاد ، وتدبير للكون ، وتصريف للأمور ، وغير ذلك من الأفعال ، التي خَصَّ الله بها ذاته جل جلاله .

حقيقته : وحقيقة هذا التوحيد هو : الاعتقاد الجازم ، والأكيد ، بأن الله سبحانه وتعالى ، هو الخالق لجميع الكائنات وحده ، والرزاق لها وحده ، والمدبر لشؤونها وحده ، والمتصرف بها وحده ، والمالك لها وحده ، والوارث لها وحده ، لا يشركه في ملكه أحد من خلقه ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، ويصرفها كيف يشاء ، على مقتضى إرادته ومشيئته وتقديره وحده ، ويهب ما يشاء لمن شاء وحده ، ويصرف ما شاء عمن شاء وحده ، والحاكمية المطلقة على عباده له وحده لا رادَّ لحُكمِه ، وأنه لا يَحدُثُ في مُلكه إلا ما يريد ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو خالق الكائنات ، وموجدها من العدم وحده ، وهو المرجع لجميعها ، وجميعها صائرة إليه وحده . ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[5] . وهو المالك

(١) سورة يوسف آية رقم ٤٠ .
(٢) سورة غافر آية رقم ١٢ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦٢ .
(٤) سورة الأعراف آية رقم ٨٧ .
(٥) سورة غافر آية رقم ١٦ .

لها وحده . ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] . ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] . فمن كانت هذه صفاته ، فلابد أن تكون له الحاكمية المطلقة ، على مخلوقاته ، وهو معبودهم لا معبود لهم سواه .

التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية :

فمن عرف أن الله هو الخالق ، البارئ ، المصور ، المالك ، المتصرف ، الرازق ، المحيي ، المميت ، وأنه يعطي ، ويمنع ، ويصل ، ويقطع ، ويضر ، وينفع ، ورب كل شيء ، ومليكه ، وأنه القائم على أمور العباد ، والمربي لهم بنعمه ، التي لا تعد ولا تحصى ، وما من نعمة في الأرض ولا في السماء ، إلا هو مصدرها ، لزمه أن يعتقد أنه هو المعبود وحده لا معبود للعالمين سواه ، وأن جميع العبادات على اختلافها ، هي : حقٌّ له وحده ، لا يشركه بها أحد من خلقه ، والخلق كلهم عبيده ، وهو ربهم ، ومالكهم ، وسيدهم ، وهذا هو التلازم الحقيقي بين التوحيدين ، لأنهما توأمان لا ينفصمان ، ولا ينفع الإيمان بأحدهما دون الآخر ، بل لابد من الجمع بينهما ، فالذي يعبد الله جل وعلا ، حق العبادة ، ولم يشرك به شيئاً ، في عبادته وكانت عبادته خالصة لوجه الله ، وصواباً إلا أنه اعتقد أن لغير الله تأثيراً مع الله في شيء من ملكه ، أو له القدرة في تصريف ما لا يقدر عليه إلا الله ، كالإحياء ، والإماته ، والرزق ، ونحو ذلك ، وأنه يملك الضر ، والنفع ، ويكشف السوء ، فهذا قد كفر وأشرك وحبط عمله .

---

(١) سورة الملك آية رقم ١ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٢٦ .

كذلك من اعتقد أن الله هو رب كل شيء ، ومليكه ، وأنه الخالق ، الرازق ، المحيي ، المميت ، والذي يضر وينفع . . إلخ . وصرف شيئاً من العبادة إلى غيره ، أو تحاكم لغيره ، ولو بشيء يسير ، أو لم يستسلم لأحكامه ، فهو أيضاً قد كفر ، وأشرك حلال الدم والمال ، ولا يقبل الله منه صرفاً ، ولا عدلاً ، ما لم يحقق التوحيدين ، على أكمل وجه وأتمه .

فإذا وحّد العبدُ ربَّه بأفعاله جل وعلا ، واعتقد أنه واحد في جميعها ، وأنَّ أزمَّة الأمور كلها بيديه ، ووحدّه كذلك بجميع الأفعال التي تعبَّدنا بها شرعاً ، واعتقد أنه سبحانه وتعالى هو المستحق لها وحده ، لا يستحقها سواه ، يكون بذلك قد حقق التوحيدين معاً ويبقى عليه تحقيق توحيد الأسماء والصفات والله الموفق للصواب .

٣) توحيد الأسماء والصفات :

إنه لمن المعلوم أن الغيب لا يُدرك بالبصر ، ولا يمكن للعقل البشري مهما سما إدراك ذلك على الحقيقة ، لأيٍّ من شؤون الغيب ، فلذلك اقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل بالهدى ، ودين الحق ، ويطلعهم على بعض الغيب ، ويعرفهم الكثير من أسمائه وصفاته العلى ، فجاؤونا بهذا الهدى كاملاً ، غير منقوص ، وعرفونا بأسمائه وصفاته ، على أتم وجه ، وأكمله ، ودلونا على ما يليق به جل وعلا ، وعلى ما لا يليق به سبحانه وتعالى ، ولم يبق للعقل البشري من وظيفة سوى أن يعقل عن الله جل وعلا تلك النصوص الواردة ، في بيان أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وأفعاله المجيدة ، ويتدبرها ، ويتفهم ما تضمنته تلك النصوص ، من معاني سامية ، لتلك الأسماء والصفات ، والأفعال على مقتضى ما أراده الله منا ، حسب ما تقتضيه الشريعة الغراء ، وعلى ما تقتضيه لغة العرب ،

وعلى النهج القويم ، حسب ما فهمته القرون الثلاثة المفضلة ، مع إثبات ما أثبته الله لنفسه ، وأثبته له رسول الله ﷺ ، من أسماء وصفات وأفعال ، مع الإيمان المطلق بجميعها نفياً وإثباتاً ، من غير تشبيه ، أو تمثيل ، أو تعطيل ، أو تأويل ، يخل بالمعنى المراد وبلا تكييف .

مقاصد هذا التوحيد : القصد من هذا التوحيد - والله أعلم - أمور ثلاثة :

١- تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة صفات المخلوقين .

٢- الإيمان بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ مع إثباتها وفهمها كما فهمها السلف الصالح .

٣- قطع الأمل تماماً من محاولة إدراك حقائقها واليأس الكلي من معرفة كيفياتها .

وهذه الأمور الثلاثة ، فيها التحقيق الكامل والشامل ، لمضمون قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] . وفي هذه الآية الكريمة ، توضيح بيِّن للحقيقة الكامنة في جميع آيات الأسماء والصفات ، وتلك الحقيقة هي تنزيهه جل وعلا ، عن مشابهة الحوادث ، واعتقاد أنه ليس كمثله شيء ، في جميعها مع إثبات جميع ما ورد في الكتاب والسنة ، من أسماء وصفات ، مع الكف عن البحث في حقائقها وكيفياتها . واختار الله سبحانه وتعالى ، - والله أعلم - صفتي السمع والبصر ، دون غيرهما من الصفات ، لاشتراك جميع الأحياء بالاتصاف بهما ، وليعلم عباده أن مشاركتهم له في السمع والبصر ، لا تقتضي المماثلة ، ولا يلزم منها مشابهة الخالق بالمخلوق ، فالله عز وجل ، وصف نفسه بالسميع البصير ، ووصف الإنسان ، بأنه سميعاً بصيراً ، ومع هذا كله لا يقتضي ذلك

(١) سورة الشورى آية رقم ١١ .

المماثلة والمشابهة . «مقتبس من أضواء البيان وما أجمل ما قاله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في محاضرة الأسماء والصفات» . ووصف بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(١) . وقال ، سبحانه وتعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢) . ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر كما قال تعالى : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٣) . وقال جلا جلاله : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(٤) .

ونحن لا نشك أن ما في القرآن حق ، فللّه جل وعلا سمع وبصر ، حقيقيان لائقان بجلاله وكماله ، كما أن للمخلوق سمعاً وبصراً ، حقيقيين مناسبين لحاله في فقره وفنائه وعجزه ، وبين سمع وبصر الخالق ، وسمع وبصر المخلوق ، من والأفعال المشتركة منها ، وغير المشتركة ، الفرق بينها ، وبين أسماء وصفات المخلوقين ، كالفرق بين ذات الخالق وذوات المخلوقين . ولقد زلّت أقلام الكثيرين ، من المتأخرين في هذا التوحيد ، وأدخل علماء الكلام ، والزنادقة الفلاسفة ، والباطنيون ، شبهات وضلالات على هذا التوحيد ، وخاصة في صفات الأفعال ، والذات ، كالوجه ، واليد ، والساق ، والأصابع ، والمعية ، والاستواء ، والنزول ، والمجيء ، والرضا ، والغضب ، والسخط ، والمكر ، والكيد ، والخداع ، والاستهزاء ، والمحبة ، والضحك ، والتعجب . . ونحو ذلك ، وقد ضل بتلك الشبه والتأويلات الكثيرون من هذه الأمة ، وإلى يومنا

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٥ .
(٢) سورة الشورى آية رقم ١١ .
(٣) سورة الإنسان آية رقم ٢ .
(٤) سورة مريم آية رقم ٣٨ .

هذا ، فلذلك كان لزاماً علينا أن نعرض معتقد أهل الزيغ والضلال من المشبهة والمعطلة ، وكذلك معتقد المؤولة ، والواقفة ، والمفوضة ، مع بيان ما جاؤوا به من شبهات ، مع الرد عليها ، ثم نختم البحث بختام مسك ، بمعتقد أهل السنة والجماعة ، الصحابة والتابعين ، والذي اتبعوهم بإحسان ، جعلنا الله وإياكم منهم وحشرنا في زمرتهم أجمعين .

بعض المذاهب والفرق :

أولاً : المُشبِّهة والمُجسِّمة :

هم القائلون عن الله : هو جسم كالأجسام ، ووصفوه بخصائص المخلوقات ، مستدلين بحديث رواه البخاري ، عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : «**ذكر الدجال عند النبي** ﷺ **فقال : إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور وأشار بيده إلى عينه ، وإن المسيح الدجال ، أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية**»[١] وقالوا : في قوله ﷺ : «وأشار بيده إلى عينه» دلالة على أن عينه كسائر الأعين[٢] .

وقالوا : له وجه كأوجهنا ، ويد كأيدينا ، وسمع كأسماعنا . . . إلخ .

أقول : تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وحسبنا أن نرد عليهم بقول الله جل وعلا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣] . وفيها ما يكفي من الرد على هؤلاء .

ثانياً : النفاة والمعطلة :

هم القائلون عن الله أيضاً : «لا هو داخل العالم ، ولا خارجه ، ولا فوقه ، ولا

---

(١) البخاري - كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى ﴿ولتصنع على عيني﴾ .

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٨٩) .

(٣) سورة الشورى آية رقم ١١ .

تحته ، ولا أمامه ، ولا وراءه ، ولا عن يمينه ، ولا عن شماله ، ولا متصلاً به ، ولا منفصلاً عنه ، ولا مباينا له ، ولا مُحايِثاً له . . . إلخ» . وما أجمل ما قاله ابن تيمية رحمه الله تعالى في الرد على هؤلاء وهذا نصه : «فإذا قيل للعقلاء موجودان قائمان بأنفسهما ، لا يكون هذا خارجاً عن الآخر مبايناً له ولا داخلاً فيه ، ولا بعيداً عنه ، ولا قريباً منه ولا فوقه ولا تحته ، ولا عن يمينه ، ولا عن يساره ، ولا أمامه ، ولا وراءه ، ولا يتصور أن يشير أحدهما إلى الآخر ، ولا يذهب إليه ، ولا يقرب منه ، ولا يبعد عنه ، ولا يتحرك إليه ، ولا يقبل إليه ، ولا يعرض عنه ، ولا يحتجب عنه ، ولا يتجلى له ، ولا يظهر لعينه ، ولا يستتر عنه ، وأمثال هذه المعاني التي تقولها النفاة ، علم العقلاء بالاضطرار امتناع وجود مثل هذين»[1] . وهم القائلون : «لا نقول أنه موجود ولا لا موجود ولا حي ولا لا حي ولا عالِم ولا لا عالِم . . إلخ»[2] .

قالوا هذا فراراً من تشبيهه بالموجودات ، والمعدومات ، فإثبات الوجود له – في زعمهم – تشبيه له بالموجودات ، ونفي الوجود عنه – في زعمهم – تشبيه بالمعدومات ففرارهم من تشبيهه بالموجودات ، وتشبيهه بالمعدومات أوقعهم في شر أنواع التعطيل وأسوئه ، فنفوا بذلك وجود الله بالكلية ، عليهم لعائن الله والملائكة والناس أجمعين .

ورحم الله ابن تيمية إذ يقول : «ثم إنهم لم يخلصوا مما فروا منه بل يلزم على قياس قولهم أن يكونوا قد شبهوه بالمُمتَنِع الذي هو أخَسُّ من الموجود المعلوم الممكن ، ففروا في زعمهم من تشبيهه بالموجودات والمعدومات ، ووصفوه بصفات الممتنعات التي لا تقبل الوجود بخلاف المعدومات الممكنات ، وتشبيهه بالممتنعات شر من تشبيهه بالموجودات والمعدومات والممكنات . .» .

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩٧/ ٥) .

(٢) نسب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى هذا القول للقرامطة الذين ينفون عن الله النقيضين «انظر المجلد الخامس من الصفحة -٣٢٧» .

« . . . وما فر منه هؤلاء الملاحدة ليس بمحذور . . فإنه إذا سُمِّي حقاً موجوداً قائماً بنفسه ، حياً ، عليماً ، رؤوفاً ، رحيماً ، وسمي المخلوق بذلك لم يلزم من ذلك أن يكون مماثلا للمخلوق أصلاً : ولو كان هذا حقا لكان كل موجود مماثلاً لكل موجود ولكان كل معدوم مماثلاً لكل معدوم ولكان كل ما يُنفي عنه شيء من الصفات ، مماثلاً لكل ما يُنفي عنه ذلك الوصف ، فإذا قيل : السواد موجود كان على قول هؤلاء قد جعلنا كل موجود مماثلاً للسواد ، وإذا قلنا : البياض معدوم كنا قد جعلنا كل معدوم مماثلاً للبياض ، ومعلوم أن هذا في غاية الفساد . ويكفي خزيا لحزب الإلحاد»[1] .

أقول : فأي محادّة لله وللرسول ﷺ أكبر عند الله من ملحد يسمع قول الله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾[2] . وقوله سبحانه : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[3] . ويقول : «لا أقول حي ولا لا حي».ويسمع قول الله :﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[4] . وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[5] . ويقول : «لا أقول : عالِم ولا لا عالِم» .

ولكن الحقيقة كل الحقيقة : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[6] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٢٧/ ٥) .

(٢) سورة الفرقان آية رقم ٥٨ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٢ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٧٣ .

(٥) سورة فاطر آية رقم ٣٨ .

(٦) سورة الحج آية رقم ٤٦ .

وحسبهم قول الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾[1] .

وهم القائلون : «سميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، وحي ولا حياة ، ومريد بلا إرادة ، ومقتدر بلا قدرة . . . . إلخ» .

فراراً منهم من تعدد القديم زعموا ، ونكتفي بالرد عليهم ، بما قاله الفاضل الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله : «ومذهبهم الباطل ، لا يخفى بطلانه ، وتناقضه على أدنى عاقل ؛ لأن من المعلوم أن الوصف الذي منه الاشتقاق ، إذا عدم فالاشتقاق منه مستحيل ؛ فإذا عدم السواد ، عن جرم – مثلاً – استحال أن نقول : هو أسود ، إذا لا يمكن أن يكون أسود ، ولم يقم به سواد . وكذلك إذا لم يَقُم العلم والقدرة بذات ، استحال أن نقول : هي عالمة قادرة ، لاستحالة اتصافها بذلك ، ولم يقم بها علم ولا قدرة»[2] .

وهنا أسأل أتباع هؤلاء سؤالاً على النمط الذي وُجِّهَ إلى بِشْرِ المرِّيسي ، في فتنة خلق القرآن . فأقول : «قولكم : لا نقول : عالم ولا لا عالم ، ولا حي ولا لا حي ، وسميع بلا سمع ، وبصير بلا بصر ، وحي بلا حياة ، وقادر بلا قدرة . . إلخ» هل هذا القول من الإسلام الذي أكمله الله وأتمه ورضيه لنا ديناً أم لا؟ !

فإن قلتم : من الدين نقول لكم : هل عَلِمه النبي ﷺ أم جَهِله؟ فإن قلتم : جهله ، نقول لكم : إنكم قد نسبتم إلى النبي ﷺ الجهل في الدين .

شيء من الدين جهله النبي ﷺ ، وعلمتوه أنتم؟ ! سبحانك هذا بهتان عظيم .

وإن قلتم : علمه ﷺ نقول لكم : هل عَلَّمَه أحداً من أصحابه رضوان الله عليهم أم سكت عنه؟ ! فإن قلتم : علّمه ، نقول لكم : من روى هذا عنه ﷺ ، وفي أي الكتب روي ، ودونكم خرط القتاد ، أن تثبتوا ذلك وأنّى لكم التناوش؟ ! ! .

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢٠ .

(٢) أضواء البيان (١/ ٣٠٩) .

وإن قلتم : سكت عنه ، ولم يعلِّمه أحداً ، من أصحابه ، نقول لكم : شيء سكت عنه النبي ﷺ ، ولم يعلمه أحداً من أصحابه ، وسكت عنه الخلفاء والصحابة ، وسكت عنه التابعون وتابعوهم بإحسان إلى يومنا هذا ، ولم يُعلِّموه أحداً من العالمين ، ألا يسعكم السكوت عنه؟ لا وسع الله على من لم يسعه ما وسع رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم .

وهذا السؤال ، يصلح أن يسأل به عن كل قول ، قاله الزنادقة ، والباطنية الحاقدة ، وعلماء الكلام ، وكذلك أتباع المشبهة والمجسمة ، والمعطلة ، والمؤولة ، والواقفة ، والمفوضة ، وغيرهم ولله الحمد والمنة .

وهم القائلون : «من قال : إن الله فوق العرش ، أو فوق عباده ، أو في السماء ، فقد زعم أنه محصور ، وأنه جسم مركب محدود ، وأنه مشابه لخلقه» . وفراراً من التشبيه ، والحصر ، والتحيز قالوا : «الله في كل مكان» .

نقول لهؤلاء : إن القائل بفوقية الله فوق عباده ، وإنه مستو على عرشه ، وإنه في السماء ، هو الله جل في علاه ، ثم قالها رسول الله ﷺ ، ثم قالها الخلفاء ، والصحابة ، وأمهات المؤمنين ، ثم قالها التابعون ، والذين اتبعوهم بإحسان ، والنصوص كثيرة وكثيرة جداً ، في كتاب الله ، وسنة نبيه ﷺ ، مشهورة في كتب السلف ، مِن التابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يومنا هذا ، وإليك أخي المسلم بعضاً من تلك النصوص ، التي تكاد لا تحصى ، في كتاب الله وسنة نبيّه ﷺ ، وأقوال السلف ، رضوان الله عليهم أجمعين .

قال الله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1] ، وقال سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[2] .

(١) سورة طه آية رقم ٥ .
(٢) سورة الحديد آية رقم ٤ .

ثم ذكر الاستواء، الذي هو بمعنى العلو، في سبع مواضع من كتابه .

وقوله تعالى : ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾[1] . ذكرها في موضعين .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾[2] ، وقوله جل شأنه : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[3] ، وقوله : ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[4] .

وقول النبي ﷺ : «إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي»[5] . وقوله ﷺ : «ألا تأمنوني وأنا أمينُ مَن في السماء»[6] .

وقول زينب : «زوجني الله تعالى من فوق سبع سموات»[7] . وفي روايه : «إن الله أنكحني في السماء» .

وقال الأوزاعي : «كنا والتابعون متوافرون نقول أن الله فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السُنَّة من صفات» .

وقال الإمام أبو حنيفة رحمه الله عمن قال : لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر ؛ لأن الله يقول : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[8] ، وعرشه فوق سبع سموات ، قلت : فإن قال قائل : إنه على العرش ، ولكن لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ، قال : هو كافر. وإنه يُدعَى مِنَ أعلى لا من أسفل ، وفي رواية

(١) سورة الملك آية رقم ١٦ .
(٢) سورة الأنعام آية ١٨ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٥٠ .
(٤) سورة الحاقة آية رقم ١٧ .
(٥) رواه البخاري .
(٦) رواه البخاري ومسلم .
(٧) رواه البخاري .
(٨) سورة طه آية رقم ٥ .

قال : إذا أنكر أنه في السماء كفر لأنه تعالى في أعلى عليين وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل»[1] .

(١٥) وقال الإمام مالك : «الله في السماء وعِلمُه في كل مكان» ، وعنه قال : «ومن اعتقد أنه ليس فوق السموات إلهٌ يُعبَد ، ولا على العرش ربٌّ يُصلّى له ويسجد ، وأن محمداً لم يُعرج به إلى ربه ، ولا نزل القرآن من عنده فهو معطل فرعوني ضال مبتدع» . وقال أيضاً : «فإن لم يعتقد ذلك - ما جاء به الكتاب والسنة واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها - من أن الله فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه يكون مكذباً للرسول ﷺ متبعاً لغير سبيل المؤمنين ، بل يكون في الحقيقة معطلاً لربه نافياً له فلا يكون له في الحقيقة إله يعبده ولا رب يسأله ويقصده ، وهذا قول الجهمية ونحوهم من أتباع فرعون المعطل ، والله قد فطر العباد عربهم وعجمهم ، على أنهم إذا دعوا توجهت قلوبهم إلى العلو ولا يقصدونه تحت أرجلهم»[2] .

(١٦) وقال الإمام أحمد : على قول الجارية عندما قالت : "في السماء" : لكن ليس معنى ذلك أن الله في جوف السماء وأن السموات تَحصُره وتَحْويه ، فإن هذا لم يقله أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هم متفقون على أن الله فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته[3] .

(١٤) وقال الترمذي : هو على العرش كما وصف نفسه في كتابه ، وعِلمُه وقُدرَته

---

(١) ولما راجعت الفتاوى لابن تيمية رحمه الله ج٥/ ١٨٣ أورد الآتي : « . . . وقال أبو مطيع البلخي في كتاب «الفقه الأكبر» المشهور ، سألت أبا حنيفة عمن يقول : لا أعرف ربي في السماء ، أو في الأرض ، قال : قد كفر لأن الله عز وجل ، يقول : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وعرشه فوق سبع سموات فقلت : إنه يقول : على العرش استوى ، ولكن لا يدري العرش في السماء أو في الأرض ، فقال : إذا أنكر أنه في السماء كفر ، لأنه تعالى ، في أعلى عليين ، وأنه يدعى من أعلى لا من أسفل» اهـ .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٥٨/ ٥) .

(٣) مجموع الفتاوى (٢٥٨/ ٥) .

وسلطانه في كل مكان ، سئل ابن المبارك قيل : بم نعرف ربنا؟ قال : «بأنه فوق سماواته على عرشه ، بائن من خلقه ، ولا نقول كما قالت الجهمية ، أنه ها هنا في الأرض»[١] .

⑮ وقال الإمام عبدالقادر الجيلاني رحمه الله[٢] : «وهو بجهة العلو ، مستو على العرش ، محتو على الملك ، محيطٌ علمه بالأشياء» ، قال تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[٣] . وقال سبحانه : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٤] ، ولا يجوز وصفه بأنه في كل مكان ، بل يقال : إنه في السماء على العرش ، كما قال : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[٥] كتاب الغنية[٦] . ومع كثرة النقول لم نر أحداً نقل عن الله أو عن رسوله ﷺ أو عن أحد من الخلفاء والصحابة والتابعين وتابعيهم ، أو حتى عن الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين ، أنه قال بالجهة ، أو الحصر ، أو التحيز ، والجسم والمركب ، والمحدود أبداً وإنما زعق بها طوائف الباطل ، ورثة الصابئة ، وعلماء

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٩/ ٥) .

(٢) عبدالقادر الجيلاني (ولد عام ٤٧٠ هـ - وتوفي عام ٥٦١ هـ) . وهو الشيخ الإمام العالم الزاهد العارف القدوة شيخ الإسلام وعلم الأولياء ، فقيه الحنابلة والشافعية ببغداد .

كان مجاب الدعوة ، سريع الدمعة ، دائم الذكر ، كثير الفكر ، رقيق القلب ، دائم البشر ، كريم النفس ، سخي اليد ، غزير العلم ، «ذكر في تفسير آية واحدة ، أربعين وجهاً ، يعزو كل وجه لقائله» . كان يحضر مجلسه الألوف فيهم أربعمائة محبرة ، تلاميذه كثير منهم ابن قدامة صاحب المغني ، وابن خالته الحافظ عبدالغني المقدسي .

تاب في مجلسه أكثر من مائة ألف من العصاة ، ودخل في الإسلام خمسة آلاف ، كان يدرِّس ثلاثة عشر علمًا «في التفسير ، والحديث ، والأصول ، والنحو ، والمذهب ، والقراءات . . . إلخ» ومع هذا رموه بالجهل لمَّا بهتوه فاتهموه بالتصوف الذي هو جهل كله ، أو كله جهل !!! . .

(٣) سورة فاطر آية رقم ١٠ .

(٤) سورة السجدة آية رقم ٥ .

(٥) سورة طه آية رقم ٥ .

(٦) كتاب الغنية - للجيلاني رحمه الله .

الكلام ، ورثة الفلاسفة الملحدين ، وأشباه اليهود ، ولعله لم يخطر ببال أحد كامل العقل سليم الفطرة - بعد أن يسمع كلام الله في كتابه أنه بكل شيء محيط - أن شيئاً من الأشياء يحيط به جل وعلا ، أو يحصره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وكيف يحاط به تبارك وتعالى ، وقد وسع كرسيه السموات والأرض ، وهو المحيط بالأشياء ، ولكن رحم الله ابن القيم حيث قال : «الجهمية نزهوا الله عن عرشه لئلا يحويه مكان ، وقالوا : هو في كل مكان في الآبار ، في الأنجاس ، وهكذا طوائف الباطل لم يرضوا بنصوص الوحي ، فابتلوا بزُبالة أذهان المتحيرين ، وورثة الصابئين ، وأفراخ المتفلسفة الملحدين»[1] . وإنه لمن المعلوم أنَّ جميع المخلوقات : الأرض ، والسماء ، والجنة تنتهي بالعرش ، والعرش محيط بها جميعها ، وبانتهاء العرش تنتهي المخلوقات وليس فوقه شيء منها ، والجهات لا تكون إلا بالنسبة للمخلوق ، فإذا انعدم المخلوق عند أعلى المخلوقات الذي هو العرش انعدمت الجهة. فإذا قال قائل : الله فوق العرش أو «في السماء» فأي معنى لهذا الحصر المزعوم مع العلم بأن الذي قال : «في السماء» هو الله والرسول ﷺ .

ومعنى السماء العلو ، و(في) تأتي بمعنى (على)، لقوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾[2] ، أي على جذوع النخل ، ويشهد لهذا ما رواه البخاري عن زينب : «وزوجني الله من فوق سبع سموات» فتبين من كلمة «في السماء» أن الله على السماء في العلو ، وعلو الله جل وعلا لا مُتناهي له وكذلك جميع صفاته لا متناهي لها ، والرسول ﷺ وصف ربه بأنه عال فوق مخلوقاته يقول : «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء»[3] فثبت بالنص عن النبي ﷺ ، أن الله فوق المخلوقات ،

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة (٨٧/ ١) .

(٢) سورة طه آية رقم ٧١ .

(٣) رواه مسلم .

وليس فوقه شيء ، فلا معنى لهذا الحصر المزعوم . والله تعالى أعلم.

وهم القائلون : «الله منزّه عن الجهة ولا يشار إليه بأين» . نقول : إن أرادوا بذلك أنه منزّه عن جهة وجودية ، تحيط به وتحويه وتحصره ، كإحاطة الظرف بالمظروف ، فنعم وهذا ما نعتقده : فالله جل وعلا منزّه عن المكان ، وأجل وأعظم وأكرم وأكبر من أن يحيط به مكان ، أو يحده مكان ، وقد كان ولا مكان ، فكيف يحيط به المكان وهو المحيط بالمكان بل وبكل شيء محيط .

قال تعالى : **﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾**[1] ، وقال : **﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾**[2] .

وإن أرادوا بالجهة الاستواء على العرش ، والفوقية والعلو على جميع مخلوقاته ، وأنه في السماء فقد أتوا منكراً من القول وزوراً ، ونفوا عن الله ما أثبته لنفسه في محكم كتابه ، وما أثبته له رسول الله ﷺ .

وخالفوا بذلك النصوص القطعية الثابتة ، وشاقوا الله ورسوله واتّبعوا غير سبيل المؤمنين ، وحسبهم قول الله : **﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾**[3] . وقوله تعالى : **﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾**[4] .

وأي مشاقة لله وللرسول ﷺ أعظم عند الله من رجل يسمع قول الله ويسمع كلام رسوله ﷺ : **﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾**[5] ، **﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾**[6] ،

---

(١) سورة البروج آية رقم ٢٠ .
(٢) سورة فصلت آية رقم ٥٤ .
(٣) سورة الحشر آية رقم ٤ .
(٤) سورة النساء آية رقم ١١٥ .
(٥) سورة الملك آية رقم ١٦ .
(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٨ .

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[1] ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[2] ، «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق إن رحمتي سبقت غضبي فهو مكتوب عنده فوق العرش»[3] ، «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء»[4] ، «إلا ظل الذي في السماء ساخطاً عليها»[5] ، «أنت الظاهر فليس فوقك شيء»[6] وإقراره ﷺ للجارية عندما قالت : «في السماء» وشهادته لها بالإيمان . ويقول : إنه ليس في السماء إله يعبد ، ولا على العرش رب يصلّى له ويسجد!. وما أعظم ما قاله ابن خزيمة في هؤلاء الزنادقة : «ومن لم يقل : إن الله فوق سمواته على عرشه ، بائن من خلقه ، وجب أن يستتاب ، فإن تاب ، وإلاّ ضربت عنقه ، ثم ألقي على مزبلة ، لئلا يتأذى به أهل القبلة ولا أهل الذمة»[7] مجموع الفتاوى (١٣٨/ ٥) .

وما قاله شيخ الإمام أحمد «سعيد بن عامر الضبعي» عند ذكر الجهمية : «هم أشر قولاً من اليهود والنصارى ، وقد أجمع اليهود والنصارى وأهل الأديان مع المسلمين ، على أن الله على العرش وهم قالوا : ليس على شيء» . الرد على الجهمية لابن أبي حاتم .

---

(١) سورة النحل آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة السجدة آية رقم ٤ .

(٣) رواه البخاري - كتاب التوحيد .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم بلفظ : « . . . إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها» .

(٦) رواه مسلم .

(٧) ولله در ابن قيم الجوزيه لما قال :

وبأنه سبحانه حقاً على الـــ	ـعرش الرفيع فجلّ ذو السلطان
وهو الذي قد شجع ابن خزيمة	إذ سل سيف الحق والعرفان
وقضى بقتل المنكرين علوه	بعد استتابتهم من الكفران
وبأنهم يلقون بعد القتل فو	ق مزابل الميتات والأنتان

ومما لا شك فيه أن قائل القول بالإضافة إلى أنه شاق الله ورسوله ، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وخالف جمهور الصحابة والتابعين ، بل جميع أصحاب الديانات السابقين وحسبه ذلك . وأما قولهم : (لا يشار إليه بأين) فهذه العبارة المضللة ، لا تصدر إلا من زنديق أو باطني حاقد ، أو من فرخ من أفراخ اليهود والمتفلسفة الملحدين ، وخاصة بعد العلم بسؤال النبي ﷺ للجارية بـ«أين الله»[١] وشهادته لها بالإيمان .

ويا للأسف فقد لاقت هذه الكلمة وأمثالها رواجاً كبيراً في عالمنا العربي والإسلامي ، وتلقفها الكثير من علماء العصر ، وغيرهم من الأزاهرة ، والصوفية فتبنوها ، ونشروها ودافعوا عنها بكل ما لديهم من قوة ، وظنوا أنها هي عين التنزيه . ومما لا شك فيه أن قائل هذه المقالة : «لا يشار إليه بأين؟» قد نصب نفسه بأنه أعلم بالله ، وبما يليق بالله من الله، وأعلم بالله وبما يليق بالله ، من رسول الله ﷺ . ولا جرم أنه قد حادَّ الله ورسوله ، في مقالته هذه . فالرسول ﷺ يسأل الجارية قائلاً لها : «أين الله» وتجيبه بقولها : «في السماء» ويشهد لها بالإيمان ، وأفراخ الفلاسفة والزنادقة يعدونها حصراً وتشبيهاً . فرحم الله ابن كُلَّاب حيث يقول : «ورسول الله ﷺ وهو صفوة الله من خلقه وخيرته من بريته ، وأعلمهم جميعاً ، يجيز «الأين» ويقوله ويستصوب قول أنه في «السماء» ، وشهد له بالإيمان عند ذلك ، وجهم بن صفوان وأصحابه لا يجيزون الأين ، ويحرمون القول به . قال : فلو كان خطأً كان رسول الله ﷺ أحقَّ بالإنكار له ، وكان ينبغي أن يقول لها : لا تقولي ذلك فتوَهَّمي أنه عز وجل محدود وأنه في مكان دون مكان ، ولكن قولي : إنه في كل مكان ، لأنه هو الصواب دون ما قلتِ ، كلا فلقد أجازه رسول الله ﷺ ، مع علمه بما فيه ، وأنه أصوب ، بل الأمر الذي يجب به الإيمان لقائله ، ومن أجله شهد لها بالإيمان حين قالته ، وكيف

---

(١) كما رواه مسلم في صحيحه .

يكون الحق في خلاف ذلك ، والكتاب ناطق به وشاهد؟»[1] انتهى .

ثالثاً : المؤولة من الخلف :

هم القائلون : «إن ظواهر هذه الصفات ، والمتبادر للذهن والسابق إلى الفهم ، من معاني الاستواء واليد والوجه والساق والأصابع والنزول والضحك والتعجب والسخط والرضى ونحو ذلك هو مشابهة صفات الحوادث ، فقالوا : يجب علينا أن نصرفها عن ظاهرها إجماعاً ، لأن من يعتقد بظواهرها فهو مشبه ، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر» هذا ملخص ما قالوه .

ورحم الله الشيخ محمد الأمين الشنقيطي حيث يقول في رده عليهم[2] : «ولا يخفى أن هذا القول من أكبر الضلال ومن أعظم الافتراء على الله عز وجل ورسوله ﷺ ، والحق الذي لا يشك فيه أدنى عاقل ، أن كل وَصْفٍ وَصَفَ الله به نفسه ، أو وصفه به رسول الله ﷺ فظاهره المتبادر منه السابق إلى فهم من في قلبه شيء من الإيمان هو التنزيه التام عن مشابهة شيء من صفات الحوادث ، فمجرد إضافة الصفة إليه جل وعلا ، يتبادر إلى الفهم أنه لا مناسبة بين تلك الصفة الموصوف بها الخالق ، وبين شيء من صفات المخلوقين ، وهل ينكر عاقل أن السابق إلى الفهم المتبادر لكل عاقل هو منافاة الخالق للمخلوق في ذاته وجميع صفاته ، لا والله لا ينكر ذلك إلا مكابر . والجاهل المفتري الذي يزعم أن ظاهر آيات الصفات لا يليق بالله لأنه كفر وتشبيه ، إنما جَرَّ إليه ذلك تنجيسُ قلبه بقذَرِ التشبيه بين الخالق والمخلوق ، فأدَّاه شؤم التشبيه ، إلى نفي صفات الله جل وعلا ، وعدم الإيمان بها ، مع أنه جل وعلا ، هو الذي وصف بها نفسه ، فكان هذا الجاهل مشبهاً أولاً ،

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣١٩) .

(٢) أضواء البيان (١/ ٣١٩) .

ومعطلاً ثانياً ، فارتكب ما لا يليق بالله ابتداء وانتهاء ، ولو كان قلبه عارفاً بالله كما ينبغي ، معظماً لله كما ينبغي ، طاهراً من أقذار التشبيه ، لكان المتبادر عنده السابق إلى فهمه ، أن وصف الله جل وعلا بالغ من الكمال والجلال ما يقطع أوهام عائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين ، فيكون قلبه مستعداً للإيمان بصفات الجلال والكمال ، الثابتة لله في القرآن والسنة الصحيحة ، مع التنزيه التام عن مشابهة صفات الخلق على نحو قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]».

وقال ابن القيم : «فصلٌ في بيان أن التأويل شر من التعطيل ، فإنه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب بالنصوص وإساءة الظن بها ، ونسبة قائلها بالتكلم بما ظاهره الضلال والإضلال . . . لا إله إلا الله والله أكبر كم هدمت هذه المعاول من معاقل الإيمان وتَثَلَّمت بها حقائق السُّنَّة والقرآن ، فكَشْفُ عورات هؤلاء ، وبيان فضائحهم من أفضل الجهاد في سبيل الله . . . إلخ»[2] .

وقال الإمام الجويني : «والذي شرح الله صدري في حال هؤلاء الشيوخ والذين أوّلوا الاستواء بالاستيلاء ، والنزول بنزول الأمر ، واليدين بالنعمتين والقدرتين ، هو عِلمي بأنهم ما فهموا في صفات الرب تعالى ، إلا ما يليق بالمخلوقين ، فما فهموا عن الله استواءً يليق به ، ولا نزولاً يليق به ، ولا يدين تليق بعظمته ، بلا تكييف ، ولا تشبيه ، فلذلك حرَّفوا الكَلِم عن موضعه ، وعطلوا ما وصف الله به نفسه» إثبات الاستواء والفوقيه للجويني .

وقال الإمام أبو حنيفة : «وله يد ، ووجه ، ونفس ، فما ذكره الله تعالى في القرآن ، من ذكر الوجه ، واليد ، والنفس ، فهو له صفات بلا كيف ، ولا يقال : إن يده

(١) سورة الشورى آية ١١ .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (١/ ٤٩) .

قدرته أو نعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف وغضبه ورضاه صفتان بلا كيف»[1] .

أقول في مقالتهم هذه : إن ظواهر هذه الصفات ، والمتبادر للذهن ، والسابق إلى الفهم من معاني الاستواء والنزول . . هو مشابهة صفات المخلوقين . . إلخ . إساءة الظن بالله جل وعلا واتهام لرسوله ﷺ ، وكيف يسوغ بمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يعتقد أن في كلام الله الذي أنزله في كتابه ووصف به نفسه ، ما ظاهره التشبيه والكفر ويتهم النبي ﷺ ، بعدم بيان ما ظاهره الكفر والتشبيه للأمة ، مع أنه مأمور بتبليغ الرسالة للناس كافة وتبيين ما نُزِّل إليهم ؟ وكيف يخطر ببال مسلم أن استواء الله على عرشه ، ونزوله إلى السماء الدنيا ، ومجيئه يوم القيامة ، ووجهه ويده ورضاه وغضبه . . إلخ . يشبه صفات المخلوقين ، وهو القائل جل وعلا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] ؟

ولكنّ أبى الزنادقة ، والباطنية الحاقدة ، وأفراخ الفلاسفة الملحدين ، وتلامذة المتكلمين ، واليهود ، والمارقين ، إلا الدَّسّ في هذا الدين الحنيف ، وزعزعة عقائد المسلمين ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

صفات كثر فيها النزاع :

ما الاستواء؟ : إتماماً للفائدة ، أود أن أنقل لك أخي القارئ ، صوراً من الصفات التي كثر فيها النزاع ، مع سرد أدلة كل من السلف ، والخلف ، مع بيان ما قالوه ، ثم نرجّح الراجح منها ونبين المرجوح» و«أبدؤها» بالإستواء فأقول وبالله التوفيق :

إن النظر في أي مسألة من مسائل الشريعة الغراء يجب أن يكون من زوايا ثلاث :

(١) الفقة الأكبر لأبي حنيفة ، شرح التتان (٢١ - ٢٢) .

(٢) سورة الشورى آية ١١ .

١- ماذا ورد عن الله أو عن رسوله ﷺ في هذه المسألة؟

٢- ماذا فهم السلف - أعني النبي ﷺ وخلفاءه وصحابته ومن اتبعوهم بإحسان - من هذا الوارد؟

٣- كيف طبقوه عملياً، وماذا قالوا فيه في حياته ﷺ وبعد وفاته؟[1].

(١) **الاستواء**: ورد في لغة العرب، التي هي لغة القرآن، ورد مطلقاً بدون حروف، وورد مقيداً ومقروناً بها، **فالمطلق**: مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾[2]، معناه تَمَّ وكَمُل، وكقولهم: استوى الطعام، واستوى التمر: نضج، واستوى فلان وفلان: تساويا.

وأما المقرون بالحروف فعلى نوعين:

١- **ما جاء مقروناً بإلى**، مثل قوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[3]، فهذا النوع، معناه القصد والارتقاء. قال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4]: أي قصد إلى السماء والاستواء هنا متضمِّن معنى القَصْد والإقبال، لأنه عُدِّي بإلى، وروى القرطبي، عن سفيان بن عيينة، وابن كيسان قولهما: «قصد إليها»[5] من تفسيره، ونقل البغوي في تفسيره عن ابن عباس، وأكثر المفسرين أن معناه ارتفع[6].

---

(١) هذه التي أسميتها بالقاعدة الذهبية، في حسن الاتباع، ومزايلة شرور الابتداع، فاستمسك بها ولا تحد عنها، حتى يأتيك اليقين، انظر مقدمة رسالة «زبدة الكلام في تحريم حلق اللحية في الإسلام».

(٢) سورة القصص آية رقم ١٤.

(٣) سورة فصلت آية رقم ١١.

(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٩.

(٥) انظر تفسير القرطبي للآية ٢٩ من سورة البقرة.

(٦) فتح الباري (١٣/ ٤٠٦).

• وكذلك روى البخاري عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾[1] ، قال : ارتفع[2] .

٢- وأما النوع الثاني المقرون بعلى ، فمثل قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[3] ، وقوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[4] ، وقوله : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾[5] ، وقوله : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[6] ، كقولهم : «استوى الراكب على راحلته» فهذا معناه العلو والرفعة ، ولا شيء غير ذلك ، ولننظر ماذا فهم المسلمون من هذا الوارد :

• **قال مجاهد** : «استوى : علا على العرش» رواه البخاري[7] .

• **وقال الحافظ ابن حجر نقلاً عن ابن بطَّال ما نصه** : «وأما تفسير استوى : علا فهو صحيح وهو المذهب الحق ، وقول أهل السنة ، لأن الله سبحانه وتعالى ، وصف نفسه بالعَلِيِّ وقال : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[8] ، وهي صفة من صفات الذات»[9] .

• **وقال ابن خزيمة** : «بابُ ذِكر استواء خالقنا العلي الأعلى الفعال لما يشاء على عرشه ، فكان فوقه وفوق كل شيء ، عالياً كما أخبرنا الله جل وعلا ، في

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٩ .

(٢) كتاب التوحيد - باب «وكان عرشه على الماء ، وهو رب العرش العظيم» .

(٣) سورة طه آية رقم ٥ .

(٤) سورة السجدة آية رقم ٤ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم ١٣ .

(٦) سورة هود آية رقم ٤٤ .

(٧) كتاب التوحيد - باب «وكان عرشه على الماء» .

(٨) سورة يونس آية رقم ١٨ .

(٩) فتح الباري (١٣/ ٤١٧) طبعة دار الريان .

قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1] . . . إلخ ، فنحن نؤمن بخبر الله جل وعلا ، أن خالقنا مستو على عرشه ، لا نبدل كلام الله ، ولا نقول قولاً غير الذي قيل لنا ، كما قالت المعطلة الجهمية أنه استولى على عرشه ، لا استوى ، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم ، كفعل اليهود لما أمروا أن يقولوا : حطة ، فقالوا : حنطة ، مخالفة لأمر الله جل وعلا ، وكذلك الجهمية ، أقول : ولذلك قيل : «لام الجهمية في استولى كنون اليهودية في حنطة» ، وقال الشيخ الهَرَّاس ، تعليقاً على قول ابن خزيمة ما نصه : «أخبر الله عن استوائه على عرشه في سبعة مواضع من القرآن وكلها بلفظ استوى مما يدل أعظم دلالة أنه أراد بالاستواء حقيقة معناه ، الذي هو العلو والارتفاع ، فإن فعل الاستواء إذا عدّي بالحرف لا يفهم منه إلا ذلك ، ولهذا روى البخاري عن أبي العالية ومجاهد تفسيره بالعلو والارتفاع»[2]

• **وقال ابن خزيمة أيضاً** : «فالخبر يُصَرِّح أن عرش ربنا جل وعلا ، فوق جنته ، وقد أعلمنا جل وعلا ، أنه مستو على عرشه ، فخالقنا عال فوق عرشه ، الذي فوق جنته» انتهى كلامه «كتاب التوحيد» . قوله : «فالخبر يُصَرِّح» . المقصود به حديث البخاري: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة»[3] .

• **وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله** : «وهو بجهة العلو ، مستو على العرش ، محتو على الملك ، محيط علمه بالأشياء ، إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه» كتاب الغنية .

---

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة ، ص١٠١ .

(٣) البخاري - كتاب التوحيد - باب «وكان عرشه على الماء» .

• وقال ابن تيمية : «وأما الاستواء فلم يرد إلا للعرش فقط ، ومن معانيه العلو ، وهو المراد لأن الله يوصف بالعلو ، والفوقية الحقيقية ، ولا يوصف بالسفول والتحتية»[1] .

وخلاصة القول : إن جميع أقوال السلف ، والتابعين لهم بإحسان ، متفقة على أن معنى الاستواء «العلو» . ومعلوم أن علو الله جل وعلا لا مُتناهىٰ له ، وأنه جل وعلا ، العلي الأعلى ، وأنه فوق مخلوقاته ، وليس فوقه شيء منها ، ويشهد لهذا القول ، قوله ﷺ : «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء . . الحديث»[2] والذي يزيد هذا القول صلابة ومتانة ، أنه لم ينقل عن أحد من السلف الإنكار على من قال : إن الله علا على عرشه ، فوق مخلوقاته ، وليس فوقه شيء من مخلوقاته ، وإلى يومنا هذا لم ينكر ويزعق بالتشبيه والتمثيل ، سوى نابتة الزنادقة والفلاسفة والله أعلم .

٢) اليـــد :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3] .

• قال ابن بطال : «في هذه الآية إثبات يدين لله ، وهما صفتان ، من صفات ذاته ، وليستا بجارحتين ، خلافاً للمشبهة من المثبتة ، وللجهمية من المعطلة ، ويكفي في الرد على من زعم أنها بمعنى القدرة ، أنهم أجمعوا على أن له قدرة واحدة في قول المثبتة ، ولا قدرة له في قول النفاة ، لأنهم يقولون : إنه قادر لذاته ، ويدل على أن اليدين ليستا بمعنى القدرة ، أن في قوله تعالى لإبليس : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4] إشارة إلى المعنى الذي أوجب السجود ، فلو كانت

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٦٥) .

(٢) رواه مسلم – كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار .

(٣) سورة ص آية رقم ٧٥ .

(٤) سورة ص آية رقم ٧٥ .

اليد بمعنى القدرة ، لم يكن بين آدم وإبليس فرق ، لتشاركهما فيما خُلِق كل منهما به ، وهي قدرته ولقال إبليس : وأيُّ فضيلة له عَلَيَّ وأنا خلقتني بقدرتك ، كما خلقته بقدرتك . فلما قال : ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[1] دل على اختصاص آدم ، بأن الله خلقه بيديه ، قال : ولا جائز أن يراد باليدين النّعمتين ، لاستحالة خلق المخلوق بمخلوق ، لأن النِّعم مخلوقة ، ولا يلزم من كونهما صفتي ذات أن يكونا جارحتين[2] .

• وقال ابن التين : وقوله : «وبيده الأخرى الميزان»[3] يدفع تأويل اليد هنا بالقدرة ، وكذا قوله في حديث ابن عباس رفعه : «أول ما خلق الله القلم فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين . . . الحديث»[4] .

• وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : «وله يد ، ووجه ، ونَفْس ، فما ذكره الله تعالى في القرآن ، من ذكر الوجه ، واليد ، والنفس ، فهو له صفات ، بلا كيف ، ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته ، لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف ، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف»[5] .

• وقال ابن خزيمة : «زعم بعض الجهمية أن معنى قوله : (خلق آدم بيديه) أي بقوَّته ، فزعم أن اليد هي القوة ، وهذا من التبديل أيضاً ، وجَهْلٌ بلغة العرب ،

---

(١) سورة ص آية رقم ٧٦ .

(٢) فتح الباري ١٣/ ٤٠٥ .

(٣) رواه البخاري - كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى : ﴿لما خلقت بيدي﴾ .

(٤) الفتح ١٣/ ٤٠٥ طبعة دار الريان للتراث . قلت : والألباني ذكر الحديث في السلسلة الصحيحة رقم (٣١٣٦) - عن ابن عمر رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن أول شيء خلقه الله عز وجل القلم ، فأخذه بيمينه - وكلتا يديه يمين - قال : فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول ، برٍّ أو فجور ، رطب أو يابس ، فاحصاه عنده في الذكر ثم قال : اقرؤوا إن شئتم : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون» فهل تكون النسخة إلا من أمرٍ قد فرغ منه» .

(٥) الفقه الأكبر ص٢٣ .

والقوة إنما تسمى الأَيْد في لغة العرب، لا اليَد فمن لا يُفرِّق بين اليد والأيد، [فهو إلى التعليم والتسليم إلى الكتاتيب، أحوج منه إلى الترؤس والمناظرة»[1]].

• وقال أبو الحسن الأشعري على قول الله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] قال: دل على أنه ليس معنى الآية القدرة، إذا كان الله عز وجل خلق الأشياء جميعاً بقدرته، وإنما أراد إثبات يدين، ولم يشارك إبليسُ آدم عليه السلام، في أن خُلِق بهما، وليس يخلو قوله عز وجل: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أن يكون معنى ذلك إثبات يدين قدرتين، أو يكون معناه إثبات يدين ليستا نعمتين ولا جارحتين ولا قدرتين، لا يوصفان إلا كما وصف الله عز وجل، فلا يجوز أن يكون معنى ذلك نعمتين، لأنه لا يجوز عند أهل اللسان، أن يقول القائل: عملت بيديَّ، وهو يعني نعمتيَّ، ولا يجوز عندنا، ولا عند خصومنا أن نعني قدرتين، وإذا فسدت الأقسام الثلاثة، صح القسم الرابع وهو أن معنى قوله: «بيدي» إثبات يدين ليستا جارحتين، ولا قُدرَتيْن، ولا نعمتين، لا يوصفان إلا بأن يقال: إنهما يدان ليستا كالأيدي خارجتان عن سائر الوجوه الثلاثة التي سلفت

وقال أيضاً: «فإن سئلنا أتقولون: لله يدين؟ قيل: نقول ذلك، وقد دل عليه قوله عز وجل: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[3] وقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته»[5] فثبتت اليد، وقد جاء في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: أن الله خلق آدم بيده، وخلق جنة

---

(١) كتاب التوحيد ص ٨٧.

(٢) سورة ص آية رقم ٧٥.

(٣) سورة الفتح آية رقم ١٠.

(٤) سورة ص آية رقم ٧٥.

(٥) صحيح سنن أبي داود (٣٩٣٦)، ومالك في الموطأ (كتاب القدر) بلفظ «بيمينه» بدلاً من «بيده».

عدن بيده ، وكتب التوراة ، وغرس شجرة طوبى بيده». وقال عز وجل : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1] ، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : «كلتا يديه يمين»[2] ، وقال عز وجل : ﴿لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾[3] ، وليس يجوز في لسان العرب ، ولا في عادة أهل الخطاب ، أن يقول القائل : عملت كذا بيدي ويعني به النعمة . . . إلخ»[4] .

وقال أيضاً : «سؤال» ويقال لأهل البدع : لم زعمتم أن معنى قوله : بيدي ، نعمتي أوَ زَعَمْتُمْ ذلك إجماعاً ، أوَ لغة؟ فلا يجوز ذلك في الإجماع ، ولا في اللغة ، وإن قالوا : قلنا ذلك من القياس . قيل لهم : ومن أين وجدتم في القياس أن قول الله :(بيديَّ) لا يكون معناه إلا نعمتيّ[5]؟ .

أقول : مما لا شك فيه أن في رد أبي الحسن رحمه الله ، القول الفصل ، والحجة البالغة ، على أفراخ الفلاسفة والزنادقة ، وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

٣) النـــزول :

قال رسول الله ﷺ : «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فاستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»[6] ، وفي رواية : «فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فاستجيب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرني ،

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) سورة الحاقة آية رقم ٤٥ .

(٤) الإبانة صفحة ٣٤ اقرأ البحث إلى آخره فإنه مهم .

(٥) الإبانة صفحة ٣٥ .

(٦) رواه البخاري ومسلم – صحيح الجامع الصغير (٨١٦٨) .

فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يبزغ الفجر» ، وكل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر من عصر النبي ﷺ يقرأ حديث البخاري ومسلم ، إلا ويقول بقول النبي ﷺ : «ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا» ، حتى جاءت نابتة الكفر والضلال فقالوا : «إذا قلنا ينزل فقد شبهناه بالمخلوق ويفرغ منه العرش ، والحركة والانتقال من صفات المخلوقات» فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فبعضهم نفى النزول وغيره من الصفات (وهم النفاة والمعطلة) ، ومنهم من قال : «لا ينزل ، إنما ينزل أمره أو رحمته أو الملك الموكل» ، وهؤلاء هم (المؤولة) قالوا : ظاهر هذه الصفات تشبيه ، والتشبيه كفر فيجب أن نصرفها عن ظاهرها .

سبحان الله العظيم ! ! دين الإسلام خير أديان السماء على الإطلاق ، دين أكمله الله ، وأتمه ، ورضيه ديناً للعالمين ، وختم به جميع الشرائع السماوية ، يكون فيه ما ظاهره التشبيه ، والكفر ، والله جل جلاله في وصفه بقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، وإفك مفترى .

محمد رسول الله ﷺ وخليل الله ، وأكرم الخلق على الله ، أرسله بالبينات ، والهدى ليبين للناس ، ما نزل إليهم ، ويَخرُج من الدنيا ، ويَلحَق بالرفيق الأعلى ، ولم يُبيِّن لهم ما ظاهره التشبيه والكفر ، بل ويقر القائل بما ظاهره التشبيه والكفر - في زعمهم - وشهد له بالإيمان . ويأتي جهم وواصل وغيرهم من رؤوس الكفر والضلال ليبينوا للناس ما أغفله النبي ﷺ ، سبحانك هذا بهتان عظيم !

الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، والذين اتبعوهم بإحسان ، وصفهم الله في محكم كتابه ، بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنه رضي عنهم ، ورضوا عنه

(١) سورة فصلت الآيتان ٤١ - ٤٢ .

وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، اختارهم الله لصحبة نبيه، ونصرة دينه، ووصفهم النبي ﷺ بأن قَرْنهم خير قرون بني آدم، هؤلاء الفضلاء الذين لا يخشون في الله لومة لائم مع التابعين وتابعيهم بإحسان خرجوا من الدنيا، ولم يبينوا للناس لا تصريحاً، ولا تلميحاً، أن في القرآن ما ظاهره التشبيه والكفر، حتى جاءت نابتة الزنادقة، والمارقين وفروخ المتكلمة والفلاسفة الملحدين، وتلامذة اليهود، والباطنية الحاقدين، ليبينوا للناس أن في كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما ظاهره التشبيه والكفر - سبحانك هذا بهتان عظيم - وحسب هؤلاء الملحدين رؤوس الكفر والضلال قول النبي ﷺ: «تركتكم على البيضاء ليلها ونهارها سواء لا يزيغ عنها إلا هالك»[1]، وقوله في حجة الوداع: «ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد. ثلاثاً... الحديث»[2].

ولعله ينطبق على هؤلاء وأشباههم قول النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوي بها سبعين خريفاً في النار»[3] الحديث.

٤) الاستهزاء والمكر والكيد والخداع:

مما لا شك فيه أن الاستهزاء، والمكر، والكيد، والخداع، مذموم شرعاً، بل في جميع الأديان، وأما الاستهزاء بالمستهزئين، والمكر بالماكرين، والكيد بالكائدين، وخداع المخادعين، فهذا أرجو أن لا يكون به بأس، وقد أثبته القرآن الكريم في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٩٣٧.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) صحيح سنن الترمذي رقم (١٨٨٤) بلفظ: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً، يهوي بها... الحديث» انظر صحيح الجامع الصغير ١٦١٨.

ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾[1] ، وقوله : ﴿ويمكرون ويمكر الله﴾[2] ، وقوله سبحانه : ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[3] .

وفي هذه المناسبة ، أسرد لكم قصة طريفة حصلت معي من أحد مشايخنا عند تفسير قوله تعالى : ﴿الله يستهزئ بهم﴾ ، وإليكها :

«جاءني رجل من حلب ، لا أعرفه سابقاً وقال لي : «شيخك أشعري» وكنت وقتها حديث عهد بالتصوف لا أعرف شيئاً عن الأشعرية ، ولا غيرها سوى «الطريقة الرفاعية العلية»[4] - زعموا - فسألته : ما معنى أشعري؟ فقال : يؤول الصفات .

قلت : كيف يؤولها؟ قال : يقول : «استوى : استولى . واليد القدرة ، وجاء ربك : جاء أمره . ويستهزئ بهم : يجازيهم على استهزائهم وغير ذلك» .

فخرجت من عنده مشوش الذهن ، وبدأت أراقب الشيخ باهتمام بالغ ، حتى جاء الوقت الذي بدأ فيه بتفسير قوله تعالى : ﴿إنما نحن مستهزئون (١٤) الله يستهزئ بهم﴾ من أوائل سورة البقرة . فقال : «يا أبنائي قد يأتيكم فلس - والفلس في لغته الفيلسوف - ويقول لكم : الله جل جلاله يستهزئ؟ فإن قلتم : يستهزئ ، فقد كفرتم ، وإن قلتم : لا يستهزئ ، فقد كذبتم القرآن . إذن فما المخرج؟ أضرب لكم مثلاً «خرج

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٤٢ .

(٤) نعم ، تصوّف أبو يوسف «رحمه الله» أول حياته ، وبداية الطلب ، لقرابة خمس سنوات :

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

وله مع التصوف ، وأهله وقائع وأحداث ، ذات شأن ، سأذكر أهمها إن شاء الله .

ثم إن الله هداه إلى منهج السلف الصالح ، الذي حدده «رحمه الله» بقوله :

«فمنهاج سيرنا الذي نسير عليه هو : قال الله عز وجل ، قال رسول الله ﷺ ، قال الخلفاء ، قالت الصحابة ، دوّنت الأئمة الأعلام ، أئمة الحديث والفقه ، بسند صحيح دون زيادة فيه أو نقص منه» .

جماعة من أهل الثراء إلى النزهة وأخذوا معهم (مهرِّجاً) ليضحكهم، وفي معرض حديثهم، قالوا له: ماذا نطبخ لك يا فلان[1]؟. قال: اطبخوا لي جبة وقميصاً، عندها قال الشيخ: «الجبة والقميص تطبخان أو تنسجان؟ فقلنا: بل تنسجان. فقال: ذلك مثل قول الله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، فعندما خاطبوه بلغة الطبخ - ومعلوم أن الجبة والقميص لا يطبخان - فخاطبهم بلغة الطبخ على المشاكلة، وكذلك عندما قال المنافقون: «إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ» قال لهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على سبيل المشاكلة، ومعنى ذلك أنه يجازيهم، على استهزائهم ولا غير.

فاستسغت هذا الكلام ابتداءً، إلا أنه انتابني صراع عنيف، مع نفسي، خاصة عندما أتلو قول الله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وأتذكر قول الشيخ: «فإن قلتم: يستهزئ فقد كفرتم» حتى جاء اليوم الذي أخرجني الله فيه من حومة الصراع العنيف، مع نفسي عندما بدأ الشيخ يفسر، قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2] من سورة آل عمران، ثم استشهد بآية الأنفال: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[3] فقال في معرض حديثه: «تعالى الله علواً كبيراً، أن يمكر لكنه يجازي الماكرين على مكرهم يوم القيامة». عندها أيقنت أن الشيخ قد حكم على نفسه بالكفر، بناء على قاعدته التي علمنا إياها: «وإن قلتم: لا يستهزئ فقد كذبتم القرآن» وتكذيب القرآن كفر.

فهرعت مسرعاً وجلاً، أنشد ضالتي، عند الأخ الحلبي، وأسمعته كلام الشيخ إجمالاً وتفصيلاً، وطلبت منه المخرج، فقال: «الاستهزاء، والمكر، والكيد، والخداع،

---

(١) استدلّوا بقول الشاعر:

قلنا اقترح شيئاً نجد لك طبخه   قال اطبخوا لي جبة وقميصاً.

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٥٤.

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٣٠.

من الصفات الذميمة ، فالاستهزاء ، والمكر ، والخداع ، والكيد ، ابتداءً مذموم شرعاً في حقنا ، فكيف في حق الله ؟ ! فإطلاقه على الله بلا قيد لا يجوز شرعاً ، كأن تقول : «الله يستهزئ» «الله يمكر» «الله يكيد» بدون قيد . . إلخ ، الله يكيد بمن يكيد ، ويخدع من يخدع ، ولا غير» لأن جميع هذه الصفات ، وردت في كتاب الله ، مسبوقة باستهزاء المستهزئين ، ومكر الماكرين ، وخداع المخادعين . . إلخ» . ثم أحضر لي كتاب الله ، وقال لي : اقرأ من هنا . فقرأت قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فأمرني أن أقف ، ثم سألني : لماذا قلت : الله يستهزئ بهم ، مع أن شيخك قال : الذي يقول : الله يستهزئ كفر ؟ فقلت له : لأن الله قالها في كتابه ، وأمرني أن أقولها ، وأن أتلوها ، فربَّت على كتفي ، وشجعني ، ودعا لي ، وقال : بل لك بكل حرف عشر حسنات[1] وليس كما قال شيخك : إن الذي يقولها يكفر ، لكننا نقول ما قاله الله في كتابه ، ونتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، وذلك محض الإيمان .

ونلتزم القاعدة ، التي قعّدها الإمام مالك رحمه الله ، ووافق عليها سلف الأمة «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» ، وكذلك نقول : «الاستهزاء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» ، وكذلك باقي الصفات ، بدون تمثيل ، أو تشبيه ، أو تحريف ، أو تعطيل ، أو نفي ، أو تأويل ، مع ذِكر القيد السالف الذِّكر ، في هذه الصفات الأربع ، وأمثالها فنقول : «يستهزئ بمن يستهزئ ، ويمكر بمن يمكر ، ويخدع من يخدع ، ويكيد من يكيد» ، والله تعالى أعلم ، وهو المستعان ، وعليه التكلان ، وهو مولانا فنعم المولى ، ونعم النصير ، فخرجت من عنده شاكراً ، وداعياً له بالتوفيق ، ومنذ ذلك الحين عرفت طريقي ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

---

(١) لقوله ﷺ : «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشرة أمثالها ، لا أقول : «ألم» حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف» صحيح الجامع الصغير ٦٤٦٩ .

رابعاً : الواقفة :

هم القائلون : «الآيات والأحاديث التي تتعلق بالصفات ، يجب عدم الخوض في شيء منها ، ويجب الإيمان بجميعها ، والكف عن معرفة معانيها ، لأنها من المُتشابِه ، الذي لا يعلم تأويله إلا الله عز وجل» .

فنقول لهؤلاء : لو كانت تلك الصفات من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله جل جلاله ، لَمَا تجرَّأ أحد من المسلمين ، أن يحوم حول الحِمىٰ ، ولما قالت أم المؤمنين أم سلمة ، والإمام مالك ، وغيرهما : «الاستواء معلوم وغير مجهول» ولا مخالف لهما فيما قالا ، ولما قال ابن بطال ، وأقره الحافظ ابن حجر : «وأما تفسير «استوى» : علا ، فهو صحيح ، وهو المذهب الحق ، وقول أهل السنة» ولما قال مجاهد فيما روى عنه البخاري : «استوى : علا على العرش» ولكن السلف أجمعين ، فهموا من آيات الصفات وأحاديثها :

١- أن معاني هذه الصفات معلومة لديهم تماماً ، ولذلك قالوا : «الاستواء معلوم» .

٢- وأما الكيف ، فمن المجهول وغير المعقول عندهم ، ومن المتشابه الذي اختص الله بعلمه .

وقول أم سلمة ، والإمام مالك ، لشاهد حي على صدق ما قلناه ، قالا : «الاستواء معلوم ، وغير مجهول ، والكيف مجهول ، وغير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود به كفر» وفي هذا الكفاية والله تعالى أعلم .

خامساً : المفوِّضة[1]:

هم القائلون : «نحن نؤمن بجميع الصفات ، ونثبتها على ظاهرها ، دون تأويل ونكلُ المعنى إلى الله عز وجل ، لأنه من الجائز ، أن يكون ظاهرا مراداً ولائقاً بالله ، ويجوز أن يكون غير مراد ، وغير لائق به سبحانه وتعالى ، فنحن نتوقف ، عن تحديد المعنى المراد ، ونفوضَ علمه إلى الله جل وعلا ، فنقول لهؤلاء : بأن السلف الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين - جزموا بأن ظواهرها - والمتبادر للذهن منها - هو المراد ، لأن الله جل وعلا - اختار هذا اللفظ الظاهر لذاته ، فوصف به نفسه ، وفهموا معاني جميع الصفات ، وجزموا بذلك ، فقالوا : الاستواء معلوم . وقالوا : معناه العلو ، واعرضوا عن الكيف ، وفي هذا كفاية والله تعالى أعلم .

سادساً : السلف الصالح :

إن مذهب السلف (**أهل السنة والجماعة**) محمد ﷺ ، وخلفائه ، وصحابته ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، والذين اتبعوهم بإحسان ، هو المذهب الوسط بين المذاهب الأخرى ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، فهم يؤمنون بجميع ما ورد في كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، من صفات لله جل وعلا ، ويثبتون جميع ما أثبته الله لنفسه في كتابه ، وما أثبته له رسوله ﷺ ، وهي صفات كمال ، وجلال ، مراعين في ما أثبتوه تنزيه الخالق ، عن مشابهة الخلق ، مع فهم تامٍ لمعاني تلك الصفات

---

(١) «التفويض عند السلف ، في باب الصفات ، هو في الكيفيَّة فقط ، فلا يعلم كنه الصفات إلا الله ، لذلك يفوضون علم الكيفية للخالق سبحانه .

وأما التفويض عند الخلف «الأشاعرة وغيرهم» فالتفويض عندهم ، في اللفظ ، والمعنى ، إذ يعتقدون أن ظاهر الصفة غير مراد ، ويلزم من هذا أن آيات الصفات من المتشابه ، ومن ثم لم يعلم ذلك رسول الله ﷺ ، ولا صحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، وهذا منكر من القول وزوراً» انظر حاشية «شرح السنة - للبربهاري» ص٣٧ تحقيق د . القحطاني .

على اختلافها ، مراعين في ذلك قواعد اللغة والشرع ، وجميعهم أعرض عن ذكر الكيفيات ، وأمسكوا تماماً عن التعرض لمعرفة حقائقها ، وعَدُّوْها من المتشابه ، الذي خص الله به نفسه جل وعلا ، وكلهم قال : «الاستواء معلوم وغير مجهول» ، وفسروه بالعلو ، فأمسكوا عن الكيف ، فقالوا : و«الكيف غير معقول والكيف مجهول» .

فلذلك قيل : «السلف رضوان الله عليهم ، لا يمثِّلون ، ولا يشبِّهون ، ولا يكيِّفون ، ولا يؤولون التأويل الذي لا ينطبق مع قواعد اللغة والدين ، ولا يستند إلى محتمل مرجوح ، ولا إلى دليل يدل عليه ، وكلهم قال وعلى رأسهم النبي ﷺ : «الرحمن على العرش استوى ، وإنه في السماء ، وينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا ، ويضحك ، ويعجب ، ويرضى ، ويغضب ، ويفرح ، ويسخط ، ويأتي ، ويعطي ، ويهب . »وغير ذلك ، وكانوا يفهمون معنى الاستواء ، والنزول ، والمجيء ، والضحك ، والتعجب ، والرضى ، والغضب ، والسخط . . . إلخ» .

بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تمثيل ، ولا تعطيل ، وبلا تأويل مخل بالمعنى المراد ، وعلى ضوء قوله جل وعلا : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

مقارنة بين قول السلف والخلف :

قول السلف :

١ - استوى : علا .

٢ - اليد : صفة بلا كيف .

(١) سورة الشورى آية رقم ١١ .

٦- **ينزل ربنا** : نزولاً ، يليق به ، بلا كيف ، ونقول بقول النبي ﷺ ينزل ربنا ، ويضحك ، ويعجب ، ويسخط ، ويأتي ، ويحب ، ويغضب ، ويفرح . . . .

ومعنى هذه الصفات معلوم ، في لغة العرب ، نثبتها جميعاً بلا كيف ، ولا تشبيه ، ولا تمثيل ، ولا تعطيل ، ولا نفي ، على ضوء قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] ، فقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ نرد بها على المشبِّهة والمعطِّلة . وقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ نرد على النفاة .

ب/ **قــول الخلــف** :

١- **الاستواء** : الاستيلاء - استوى : استولى .

٢- **اليـــد** : القدرة ، والنعمة .

٣- **النزول** : نزول الأمر ، والرحمة ، أو المَلَك المُوَكَّل .

- ويقولون : إن ظواهر هذه الصفات ، لا يليق بالله ، لأن ظاهرها التشبيه لصفات المخلوقين ، ومن شبه الله بخلقه فقد كفر ، لذلك يجب صرف ألفاظها على ظاهرها ، لأن ظاهرها غير مراد ، ولا يليق بالله .⊜

⊜ فاليد ، والوجه ، والنفس ، والعين ، كل هذه جوارح ، والجارحة لا تقوم إلا بجسم ، فيكون محلاً للحوادث ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فنحن ننفيها تنزيهاً لربنا جل جلاله عن التشبيه .

* فقل لي بربك أخي المسلم : أيهما أليق بالله:استوى ، بمعنى علا ، أم استوى بمعنى استولى ؟ ! مع العلم أنه سبق أن أثبتنا أنه ليس من معاني استوى استولى .

ويلزمهم أن يقولوا عن قوله تعالى : ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾[2] : استولت

---

(١) سورة الشورى آية رقم ١١ .

(٢) سورة هود آية رقم ٤٤

على الجودي ، وهذا لا يقول به عاقل ، واستولى عليه استيلاء ، لا يكون إلا بعد مغالبة ، فمَن غالَبَ اللهَ على عرشه حتى استولى عليه منه؟! سبحانك هذا بهتان عظيم .

* وأيهما أليق بالله ، إثباتُ يدَيْنِ ، ليستا بجارحتين ، ولا قدرتين ، ولا نعمتين ، لائقتين بالله ، ليس كمثلهما شيء ، وكلتا يديه يمين ، أو قول الذين قالوا : لا يد له ، وإنما يده قدرته ، أو نعمته؟ ! مع العلم أن النفاة نفوا عنه القدرة ، وقالوا : قادر بلا قدرة ، والسلف والمؤولة متفقون أن الله له قدرة واحدة ، فكيف يؤولون قوله تعالى : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[1] ، وقول النبي ﷺ : «وبيده الأخرى الميزان ، وكلتا يديه يمين . . .»[2] ، هل يقولون : «يداه مبسوطتان» ، قدرتاه ، أو نعمتاه مبسوطتان ، وكلتا قدرتيه ، أو نعمتيه يمين ، وبقدرته ، أو نعمته الأخرى الميزان ، ولكن رحم الله الإمام أبا حنيفة «رحمه الله» إذ يقول : «وله يد ، ووجه ، ونفس ، فما ذكره الله تعالى ، في القرآن ، من ذكر الوجه ، واليد ، والنفس ، فهو له صفات بلا كيف . ولا يقال : إن يده ، قدرته ، أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة ، وهو قول أهل القدر ، والاعتزال ، ولكن يده صفته بلا كيف» . ونحن بقول الإمام «رحمه الله» : إن الذي يقول : يده قدرته ، أو نعمته ، فقد أبطل صفة من صفات الله ، وإنه قدري ، معتزلي .

* وأيهما أليق بالله؟ القول بقول النبي ﷺ : «ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فيقول : هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من تائب فأتوب عليه؟ حتى يطلع الفجر»[3] أم الذين قالوا : لا ينزل ربنا - خلافاً لقول

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه .

(٣) صحيح الجامع الصغير ٨١٦٧ .

النبي ﷺ - وإنما ينزل أمره، أو رحمته، أو الملك الموكَّل؟! فنقول: من القائل: «من يسألني فأعطيه، ومن يدعوني فاستجيب، . الحديث»: أمره، أم رحمته، أم الـمَلك الموكل؟ ومن ذا الذي يعطي، ومن ذا الذي يستجيب، ومن ذا الذي يغفر سوى الله جل وعلا؟!.

* وأيهما أليق بك أخي المسلم؟ أن تقول بقول الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[1]: استواء يليق بجلاله وكماله، بلا كيف ولا تشبيه، وتقول بقول رسول الله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا» نزولاً يليق بجلاله، وكماله، بلا كيف، ولا تشبيه، وتقول بقول السلف، وتقول بقول ربنا: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وبقول رسولنا ﷺ: ينزل ربنا تبارك وتعالى، ويضحك، ويعجب، ويسخط، ويأتي، ويحب، ويغضب، ويفرح، بلا كيف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تأويل، على ضوء قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

أم القول بقول الخلف: الرحمن على العرش استولى، ليس له يدان، ويداه قدرتاه، ونعمتاه، لما خلقت بيدي = بقدرتي، ونعمتي، ولا ينزل ربنا كل ليلة، لأنه إن نزل خلا منه العرش، وإنما ينزل أمره، أو رحمته، أو الملك الموكل، ونفوا عنه باقي الصفات.

(وقد أثر عن الشافعي رحمه الله النهي عن الاشتغال بعلم الكلام، وحذر من أهل)[3] الكلام، وحكم عليهم، أن يضربوا بالجريد، والنعال، ويطاف بهم في

---

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) سورة الشورى آية ١١ .

(٣) ما بين معكوفتين كلام أضفناه ليستقيم السياق، وقد ذهل عنه إما المؤلف أو الناسخ، عسى أن يستدرك لاحقاً.

الأسواق[١] مع علمك أن السلف ، والخلف متفقون جميعاً ، أن مذهب السلف أسلم ، وأزيد فأقول : وأعلم وأحكم إرغاماً لأنوف القائلين : «ومذهب الخلف أعلم وأحكم» كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذباً وميناً وزوراً ، ومن ذا الذي يدعي أنه أعلم وأحكم ، من النبي ﷺ ، وخلفائه ، وصحابته ، والتابعين لهم بإحسان ، والذي أبى الله أن يجمعهم على ضلالة ، ولكن الحقيقة كل الحقيقة : كما قال الله تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢] . فحذار ، حذار ، أخي المسلم ، أن تتجنب سبيلهم ، وتبتعد عن هديهم ، فالخير كله في اتباع من سلف والشر كله في ابتداع من خلف والله الهادي إلى الصواب .

شبهات والرد عليها «التأويل» :

لعل سائلاً يسأل : كثيراً ما وردت في كتب المتقدمين ، من أهل السنة ، عبارة «السلف لا يؤولون» فلماذا أوّل مجاهد ، وأبو العالية الاستواء بالعلو ، وأوّل علماء السلف المعية بمعية النصر والتأييد ، وتجري بأعيننا ، تجري برعايتنا وكلاءتنا؟ ! . . إلخ . فأقول وبالله التوفيق :

أما قول السلف: «السلف لا يؤولون» فهذا الإطلاق غير صحيح ، وإنما هو صحيح من ناحية ، وغير صحيح من الناحية الأخرى ليس على إطلاقه ، لأن التأويل ، عند أهل اللغة ، والأصوليين ، يطلق على إطلاقات أربعة :

١- **التفسير والتبيان** : فهذا النوع من التأويل قال به السلف وعملوا به ، مستدلين بقول النبي ﷺ ، ودعائه لابن عباس «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»[٣] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية صفحة ٢١٠ حيث جاء : «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في القبائل ، والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام» اهـ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٤٦ .

(٣) صحيح رواه أحمد كما قاله الألباني في شرح الطحاوية (ص١٨٠) .

وأبرز دليل يدل على ذلك، ما رواه البخاري عن مجاهد قوله: «استوى: علا على العرش» ويشهد لهذا قول أم سلمة، والإمام مالك: «الاستواء معلوم وغير مجهول». ويؤكده ما نقله الحافظ ابن حجر عن ابن بطال: «وأما تفسير «استوى: علا» فهو صحيح وهو المذهب الحق، وقول أهل السنة، لأن الله سبحانه وصف نفسه بالعلي، وقال سبحانه: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1] وهي صفة من صفات الذات».

والناقل عنهم ابن حجر، مع كونه مؤولاً، ويميل للتأويل، لم ينكر عليهم مقالتهم[2].

٢- **صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح**: فيكون راجحاً، إما من مفهوم اللفظ، ومنطوقه، أو لقرينة خارجية عقلية، أو نقلية، بدليل «شرعي أو عقلي» يدل على ذلك، فهذا النوع من التأويل، قال به السلف أيضاً، وعملوا به فمثلاً قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[3]، قال أهل التفسير: «بمرأى منا، ومنظر منا، نرى ونسمع ما تقول وتحت كلاءتنا» وكذلك قوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[4]، قال ابن كثير، والقرطبي وغيرهما: «تجري بمرأى منا، وتحت حفظنا وكلاءتنا».

فكانوا بمثل هذه النصوص، يصرفون اللفظ عن ظاهره، لتعذر الحقيقة. وهو سير السفينة «في عين الله» بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾[5]، فتعين علينا التأويل، وليومنا هذا لا نعلم أحداً أنكر على أهل التفسير، تأويلهم هذا أبداً لأن

---

(١) سورة النحل آية رقم ٣.

(٢) انظر فتح الباري مجلد ١٣ - كتاب التوحيد وشرحه له.

(٣) سورة الطور آية رقم ٤٨.

(٤) سورة القمر آية رقم ١٤.

(٥) سورة هود آية رقم ٤١، ٤٢.

الدليل العقلي والنقلي ، يؤيد هذا التأويل ، والله تعالى أعلم .

وكذلك أوّلوا المعية ، إلا أن المعية تمتاز عن غيرها من الصفات ، بأن الآية نفسها تحدد المعنى المراد من المعيّة ، فقد تكون معية عِلم وإحاطة ، أو معية نصر وتأييد ، أو معية حفظ وكلاءة . كقوله تعالى مثلاً : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1] ، فبدأ جل وعلا الآية بالعلم وختمها بالعلم فتبين من منطوق الآية ، ومفهومها أنها معية علم لا معية ذات ، وكذلك قوله : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[2] ، فالآية حددت معنى المعية ، بأنها معية اطلاع عليهما ، وأنه مطلع على فرعون ، وعلى تحركاته ، وكل مكائده ، وكذلك قوله : ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3] ، معية هداية وتوفيق ، وعلاوة على ذلك فإن هذا النوع من التأويل ، مفهوم عند العرب من لغتهم ، حتى عند عرب القرن العشرين ، وكثيراً ما نسمع إذاعاتهم ، وصحفهم تكرر القول : «نحن مع هيئة الأمم في قراراتها» ، «نحن معكم يا أحرار العرب» ، «نحن معكم في كل مكان» . هذا ما كان يكرره صوت العرب ، في زمن عبد الناصر ، وحتماً كانوا معهم بالنصر والتأييد ، والله تعالى أعلم .

٣- **الحقيقة التي يؤول إليها** : مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[4] ، فيوسف رأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر رآهم

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٧ .

(٢) سورة طه آية رقم ٤٦ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ٦٢ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .

ساجدين ، فالأحد عشر كوكباً إخوته ، والشمس والقمر أبوه وامرأة أبيه ، ولم يكن يعلم هذا إلا بإعلام الله له . وقوله تعالى : ﴿**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**﴾[1] ، وكقوله سبحانه : ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ . . .**﴾[2] ، وكقوله سبحانه : ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**﴾[3] .

فهذه الحقيقة التي عبر عنها السلف ، بـ(الكيف) لا يعرف حقيقتها أحد ، لا السلف ، ولا الخلف ، ولا يعلمها إلا الله وحده جل وعلا ، ولذلك فإن السلف ، أعرضوا عنها بالكلية ، ولم يتعرضوا لها سلباً أو إيجاباً ، بل كلهم قال : «والكيف غير معقول والكيف مجهول» .

٤- **هو صرف اللفظ عن ظاهره** : بلا محتمل مرجوح ، ولا لدليل يدل عليه ، مثل تأويل الرافضة لقوله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً**﴾[4] ، قالوا : عائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنها - عليهم لعائن الله .

فالخطاب عن موسى ، لبني إسرائيل فأين المرجوح المحتمل؟ ، وأين الدليل الذي يدل على صحة قولهم؟ . وكذلك قولهم : ﴿**الجبت والطاغوت**﴾ أبوبكر وعمر - رضي الله عنهما - ولكن حسبهم قول النبي ﷺ : «لعن الله من سب أصحابي»[5] ، وقوله : «من سب أصحابي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[6] .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٣٩ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٥٣ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ٧ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٦٧ .

(٥) صحيح الجامع الصغير ٥١١١ .

(٦) صحيح الجامع الصغير ٦٢٥٨ .

وكتفسير ابن عربي لقول الله : ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[1] ، شهد له بالإيمان ، وفسر العذاب بالعذوبة ونحو ذلك من الأقوال والتأويلات التي لا تستند إلى لغة ، أو شرع ، أو عقل ، ولا إلى محتمل مرجوح ، فهذه أيضاً ، كان السلف أبعد الناس عنها ، وكانوا يرمون قائلها بالزندقة ، والضلال ، والابتداع .

فالسلف إذاً يؤولون التأويل الذي هو بمعنى التفسير ، ولذا قال ابن تيمية : «وأما الاستواء ، فلم يرد إلا للعرش فقط ، ومن معانيه العلو ، وهو المراد لأن الله يوصف بالعلو والفوقية ، ولا يوصف بالسفول والتحتية قط»[2] .

وقد أكثرنا من النقول ، التي تثبت ذلك ، ولله الحمد والمنة ، ويؤولون القسم الثاني ، الذي قال به الأصوليون ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، لمحتمل ومرجوح . . . إلخ ، (كالمعية ، والأعين) ، كما مر بيانه ، ويعرضون بالكلية ، عن القسمين الثالث والرابع ، إعراضاً تاماً ، ويرمون القائلين بهما بأنهم ضلال مبتدعون .

وقد قال قائلون ، من المعتزلة ، والجهمية ، والحرورية : «إن قول الله عز وجل : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[3] . إنه استولى ، وقهر ، وملك ، وإن الله في كل مكان ، وجحدوا أن يكون عز وجل على عرشه ، كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة ، ولو كان هذا كما ذكروا كان لا فرق بين العرش والأرض»[4] .

ولعل سائلاً آخر يسأل : «إذا كان قد ثبت عن السلف التأويل ، فلماذا نعيب على الخلف تأويلهم» فأقول وبالله التوفيق :

(١) سورة غافر آية رقم ٤٦ .

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩١) .

(٣) سورة طه آية رقم ٥ .

(٤) الإبانة صفحة ١٢٠ .

قد ثبت فعلاً عن السلف ، ولكنه تأويل غير خارج عن قواعد اللغة ، والشرع ، ولا مخالف للعقل ، وكل تأويلهم يدور في حلقة الإثبات ، والتنزيه ، وأما تأويل الخلف ، فيدور حول النفي ، والتعطيل ، فراراً من تشبيه الله بالمخلوقين ، وهو مخالف للعقل ، والنقل ، ولا ينطبق مع قواعد اللغة والشرع .

فمثلاً الاستواء ، أولوه بالاستيلاء ، والثابت في لغة العرب ، أن الاستيلاء ليس معنًى للاستواء ألْبتة ، ويلزمهم أن يقولوا في سفينة نوح ، بأنها استولت على الجبل ، وهذا محال عقلاً وشرعاً . واسمع ماذا قال أهل اللغة ، نقل الحافظ ابن حجر عن كتاب أبي إسماعيل الهروي بسنده إلى داود بن علي قال : «كنا عند أبي عبدالله ابن الأعرابي يعني محمد بن زياد اللغوي فقال له رجل : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[1] فقال : هو على العرش كما أخبر . قال : يا أبا عبدالله إنما معناه استولى فقال : اسكت لا يقال : استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد» .

ونقل من طريق محمد بن أحمد بن النضر الأزدي ، سمعت ابن الأعرابي : «أرادني أحمد بن أبي داود أن أجد له في لغة العرب ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2] بمعنى استولى ، فقلت : والله ما أصبت هذا» ، وقال غيره : لو كان بمعنى استولى ، لم يختص بالعرش ، لأنه غالب على جميع المخلوقات ، ونقل محيي السنة البغوي في تفسيره عن ابن عباس : وأكثر المفسرين ، أن معناه ارتفع ، وقال أبو عبيد والفراء وغيرهما بنحوه» انتهى[3] . فإذا كان الأمر كذلك ، وليس في لغتنا معنى لإستوىٰ استولى ، وليس لله من يضادُّه في ملكه ، فكيف نترك أقوال

---

(١) سورة طه آية رقم ٥ .

(٢) سورة طه آية رقم ٥ .

(٣) فتح الباري (١٣/ ٤١٧) .

السلف العرب الأقحاح ، ونلجأ إلى مولد نصراني أخطل ، فمثل هذا لا يليق بعربي ، ولا بمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، والله أعلم .

ومثلاً آخر : النزول : فالنبي ﷺ قال : «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا»[1] والخلفاء من بعده ، قالوها وكذلك الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم ، وإلى يومنا هذا ، كل مسلم يقرأ البخاري ومسلم ، وغيرهما يقول : «ينزل ربنا كل ليلة . . الحديث» وهم يقولون : لا ينزل ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، رغم وجودها في الصحاح والمسانيد ، وقالوا : إذا نزل خلا منه العرش ، وهذا محال على الله ، إذاً لابد من القول بأنه ينزل أمره ، أو رحمته ، أو الملك الموكل ، فإذا كان الله لم ينزل ، فمن الذي يقول : أنا الملك ، ومن يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه . . الحديث» هل هو الأمر ، أم الرحمة ، أم الملك ، أفتونا مأجورين ؟ ! .

ومثلاً آخر : اليد : فالله «جل وعلا» قال : ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[2] ، وقال سبحانه : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[3] . وقال : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4] .

والرسول ﷺ قال : «يأخذ الله عز وجل سماواته وأرضيه بيديه ، فيقول : أنا الله . . الحديث»[5] ، وفي رواية : «ثم يأخذهن بيده اليمنى»[6] ، «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة . . . سحّاء الليل والنهار ، وقال : أرأيتم ما أنفق منذ خلق الله السموات والأرض ،

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٨١٦٨ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٦٤ .
(٣) سورة ص آية رقم ٧٥ .
(٤) سورة الزمر آية رقم ٦٧ .
(٥) رواه مسلم .
(٦) رواه مسلم .

فإنه لم يغض ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع »[١] «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يكفؤها الجبار بيده ، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر ، نزلاً لأهل الجنة»[٢] ، «كلتا يديه يمين»[٣] .

وهم يقولون : «لا يد له» أن اليد جارحة ، والجارحة لا تقوم إلا بجسم ، والجسم من صفات المخلوقين ، فيجب أنْ نقول : يده قدرته ، أو نعمته فهذا القول : «اليد جارحة . . إلخ» لم يقل به النبي ﷺ ، ولا الخلفاء ، ولا الصحابة ، ولا الأئمة «رضوان الله عليهم» ، ومما لا شك فيه أن هذا من إحداث الزنادقة ، والنبي ﷺ نهى عن محدثات الأمور ، وهذا القول قد جرهم إلى نفي اليد عن الله جلا وعلا ، مع كونها ذكرت في الكتاب والسنة ، كذلك جزم الإمام أبو حنيفة ، وغيره من الأئمة ، بأن القائل : «اليد القدرة» قد نفى الصفة ، قال رحمه الله : «ولا يقال : إن يده قدرته أو نعمته لأن فيه إبطال الصفة»[٤] .

وجزم بذلك ابن القيم في مختصر الصواعق «فصل في بيان أن التأويل شر من التعطيل ، فإنه يتضمن التشبيه والتعطيل والتلاعب بالنصوص ، وإساءة الظن بها ، ونسبة قائلها بالتكلم بما ظاهره الضلال والإضلال»[٥] .

وما قال الإمام أبو حنيفة حق كله : «فقولهم : «اليد جارحة» قطعاً فيه تشبيه يد الله بالمخلوق ، وقولهم : «يده قدرته» ، نفي لليد ، ونفي اليد فيه التعطيل . . إلخ» .

فالفرق بين تأويل السلف والخلف ، كالفرق بين الحق والباطل ، والهدى

---

(١) رواه البخاري - كتاب التوحيد .

(٢) صحيح الجامع الصغير ٢٩٨٨ .

(٣) رواه مسلم - كتاب الإمارة .

(٤) الفقه الأكبر صفحة ٢٣ .

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٤٩/ ١١) .

والضلال ، فتأويل السلف موافق لقواعد اللغة ، والشرع ، والعقل . ويقوم على قواعد الإثبات والتنزيه ، من غير تشبيه ، ولا تمثيل ، ومن غير نفي ، ولا تعطيل .

وأما الخلف فتأويلهم لا يستند إلى كتاب ، أو سنة ، أو لغة ، أو شرع ، أو عقل ، بل يقوم على قواعد النفي ، والتعطيل ، وزبالة آراء الفلاسفة ، والزنادقة ، وعلماء الكلام ، وخالفوا بذلك الصحابة ، والتابعين ، وكتاب رب العالمين ، وسنة سيد المرسلين ، وحسبهم ذلك ، وفي ذلك ما يكفي في الرد على هؤلاء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

٥- اعتراضات :

قد يعترض علينا معترض فيقول : ابن حجر أشعري ، والنووي أشعري ، وابن حزم جهمي أشعري ، وصلاح الدين أشعري ، ومحمد الفاتح أشعري ، وابن رشد (الوالد) أشعري . . وفلان ، وفلان كلهم أشاعرة .

فلماذا لا تحملون عليهم ، وتحملون على الجماعة الفلانية المعاصرة ، والشيخ الفلاني المعاصر ، والعالم الفلاني الموجود ، والعقيدة هي نفس العقيدة ، والأفكار هي نفس الأفكار؟

نقول : «نحن لا نحمل على الأفراد ، من حيث كونهم أفراداً ، أو على الجماعات من حيث كونهم جماعات ، معاذ الله ، لكننا نحمل على عقائد يتبنونها ، وأفكار يحملونها ، ويبثونها في المجتمع ، هي في حد ذاتها باطلة ، ومخالفة للكتاب والسنة ، ولهدي محمد ﷺ ، وهدي الخلفاء والصحابة ، ولهدي الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين ، تلك الأفكار لا يخلو حاملها من أمرين اثنين ، إما أن يكون من أهل الورع والتقى ، وإمام هدى ، قصده وجه الله ، والدار الآخرة ، ورائدة الحق ، وتشهد له الأمّة ، بأنه من أهل الخير ، فهذا

الرجل ، إن أخطأ فيما اجتهد فيه أو تأول فيما ذهب إليه فأخطأ ، فهو مأجور على كل حال ، وتبقى له مكانته ، ومنزلته ، وتقديره في نفوس المسلمين ، ويكون محترماً عند الجميع[1] .

تمت الرسالة

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

الشيخ/ أبو يوسف عبدالرحمن عبدالصمد

«رحمه الله تعالى»

---

(١) وهنا يحسن التذكير بمبدإ كان الشيخ رحمه الله يتبناه ويؤصله وهو أنه «لا عصمة للأشخاص ، وإنما العصمة للمبدأ ، فخطأ الشخص ، مهما عظم شأنه ينسب إليه ، ودين الإسلام منه بريء» .

كما قال القائل :

ليس للإنسان قطعاً عصمة　　غير رسلٍ بشّروا من قد أنابا

في . . . مسك الختـــام

أ) المؤلف في سطور :

هو الشيخ أبو يوسف ، عبدالرحمن بن يوسف بن محمود بن حسين بن علي ابن عبدالصمد .

ولد عام ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م في عنبتا - فلسطين .

وقد تلقى العلم الشرعي على طريقة الأولين ، من جهابذة علماء السلف المعاصرين من أمثال : أصحاب الفضيلة : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، والشيخ محمد نسيب الرفاعي رحمهم الله أجمعين [١] .

ومما قاله الألباني «رحمه الله» فيه :

«أخونا أبو يوسف - رحمه الله - من أنبغ الإخوان (أي السلفيين) هناك ، وأحرصهم على العلم الصحيح .

وأنا أشهد لله عز وجل أنه من أخلص من رأيت من إخواننا»[٢] .

---

(١) ويحسن بنا التأسي بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فإنها كانت تتمثل بعد موت النبي ﷺ بقول لبيد :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ... ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

إن الرزية لا رزية مثلها ... فقدان كل أخ كضوء الكوكب

ثم تقول رضي الله عنها : كيف لو رأى لبيد خَلَفنا هذا !! ويقول الشعبي رحمه الله : كيف لو رأت أم المؤمنين خلفنا هذا !!

قلت : كيف لو رأت خلفنا هذا اليوم ، وما قبله ، ونعوذ بالله وحده مما بعده !!!

فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(٢) من شريط سلسلة الهدى والنور رقم ١٧٣/ ١ .

وكانت وفاته في أستراليا ، ليلة الخميس الساعة السابعة والنصف ١٧ شوال ١٤٠٨هـ الموافق لـ٢ حزيران «يونيو» ١٩٨٨م . وذلك على أثر حادث سيارة مؤلم ، عندما كان خارجاً للدعوة إلى الله في تلك البلاد ، حيث وجهت له دعوة من الجمعية الإسلامية من ملبورن - أستراليا ، عن طريق جمعية إحياء التراث الإسلامي في الكويت . وقد دفن في أستراليا ، في إحدى مقابر المسلمين هناك تطبيقاً للسنة . أسْكنه الله الفردوس الأعلى وكتب وفاته شهادة في سبيله إنه خير مسؤول ، وجعله الله بفضله من أهل هذه الآية : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[١] .

وجعله سبحانه أيضاً من أهل هذا الحديث : «إن الرجل إذا مات بغير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة»[٢] .

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات .

ب) **وهذا الموقف مع التصوف :**

الشيخ رحمه الله ، ابتدأ التصوف وفقاً للطريقة الرفاعية ، التي ينسب لشيخها أحمد الرفاعي ، هذه الأبيات :

لي همّة بعضها تعلو على الهمم ... ولي هوىً قبل خلق اللوح والقلم

أنا الرفاعي طبولي في السما ضربت ... والأرضي قبضتي والأوليا خدمي

فالجأ بأعتاب عزي والتمس مددي ... وطف ببابي وقف مستمطراً نعمي[٣]

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٠٠ .

(٢) صحيح الجامع الصغير ١٦١٢ .

(٣) انظر كتاب «الكشف عن حقيقة التصوف» لمحمود عبدالرؤوف قاسم صفحة ٥١٢ .

هذا ويروّج الأتباع لقصة ، وهي أن الرفاعي ، لما زار قبر النبي ﷺ ، قال هذين البيتين :

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبـِّل الأرض عني وهي نائبتي

وهاهي دولة الأرواح قد حضرت فأمدد يديك لكي تحظى بها شفتي

وعلى الفور ، أخرج النبي ﷺ يده الشريفة من قبره الشريف ؛ ليقبلها أمام الألوف من الناس .

قلت : ومن طرائف تعليقاته عليها ، قوله - رحمه الله - : هذه الكرامة الباهرة ، لم يروها من هذه الألوف المؤلفة راو واحد بسند صحيح ، أو سند ضعيف ، بل ولا بسند واهٍ ، أو موضوع ، بل الناس يتداولونها ، ويعتقدونها بلا زمام ، ولا خطام ، فقط كلام في كلام في كلام . . .

والطريقة الرفاعية ، لها صلة بالتشيع قويّة ، حيث قالوا : «جفرنا محمدي ، ترقيمة فاطمي ، تقريره جعفري ، تسطيره كاظمي ، ترميزه رفاعي . . نحن عصبة لولانا ما عرف الله» .

وقد استوفى بيان هذه الصلة ، الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق - حفظه الله - في كتابه الفريد المفيد «الفكر الصوفي» فراجعه للأهمية .

ومن قواعد التصوف قولهم : «ما أفلح مريد قال لشيخه : لِمَ؟» ، «ولا تعترض تنطرد ، يغلق عليك الباب» ، «وكن بين يدي الشيخ ، كالميت بين يدي مغسّله» وما على المريد إلاَّ الالتزام والاعتصام بهذا .

لكن أبو يوسف - رحمه الله - ، لم يمت - كما أرادو - بل بقي حيًّا ذا بصيرة ثاقبة ، كانت - بعد توفيق الله - سبباً لهدايته ، وخاصة من بعد هذه

القصة ، كما رواها - رحمه الله تعالى - :

«كان عمي - والد خطيبتي - مريداً لأحد مشايخ الطرق في «حلب» . وكان ينشد في مجلسه الأناشيد الصوفية . وكان محباً جداً للمشايخ ، وغالباً ما يدعوهم إلى وليمة في بيته ، فصادف يوماً أن دعا بعض المشايخ ، يقارب عددهم سبعة أو ثمانية ، فقال أحدهم في معرض حديثه : «في يوم من الأيام كان سيدنا الباز «عبدالقادر» في حلقة ذكر ، وكل شيء في الحلقة يقول : الله ، الله ، الله . . الخ» إلاّ الباز «عبدالقادر» ، يقول : أنا الله ، أنا الله . . . فعندما انتهت الحلقة ، قال له الحاضرون : يا مولانا ، لقد سمعناك تقول : أنا الله ، أنا الله . . . فقال لهم : إذا سمعتموني مرَّة أخرى أقولها ، فاضربوني بالسيف .

وفي حلقة أخرى للذكر ، عاد ثانية يقولها بصوت عال : أنا الله ، أنا الله ، أناالله . . فسلّ الجميع سيوفهم ، وضربوه ضربة رجل واحدٍ ، فإذا به نور ، زاد السيوف لمعاناً ، فقالوا : يامولانا ! ، لقد عدت تقول (أي أنا الله) فضربناك ، فلم تتأثر من السيوف ، ولم تؤثر بك السيوف .

فقال : «استروا علي ما شفتم» .

فاستأذنت (أي أبو يوسف صاحب القصة) ، بالكلام فأذن لي ، فقلت له : أسألك بالذي لا تقوم السموات والأرض إلّا به؟

عبدالقادر الجيلاني أكرم على الله من النبي ﷺ؟ ، فقال : لا .

أم أكرم على الله ، من أبي بكر ، من عمر ، من عثمان ، من علي ، رضوان الله عليهم أجمعين؟ ، قال : لا .

أم أكرم على الله ، من الصحابة ، والأئمة الأربعة ، رضوان الله عليهم أجمعين؟ . قال : لا .

فقلت له : برب العباد أسألك ، هل أحد من هؤلاء ، قال ولو مرة واحدة ، في صحوه أو محوه : «أنا الله»؟

فما كان منه إلاَّ أن بادرني ، وبسرعة فائقة : «أنت وهابي ، ضال ، مضل ، تنكر كرامات الأولياء» اهـ .

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

أبو عبدالرحمن

إبراهيم بن حميد الساجر

الفهـــرس

الموضوع	رقم الصفحة
أ) العبادات القلبية	٢٦
ب) العبادات العملية	٢٦
ج) العبادات القولية	٢٧
د) العبادات المالية	٢٧
٢) توحيد الربوبية المتضمن لتوحيد الحكم	٢٨
تعريفه	٢٩
حقيقته	٢٩
التلازم بين توحيد الألوهية والربوبية	٣٠
٣) توحيد الأسماء والصفات	٣١
مقاصد هذا التوحيد	٣٢-٣٣
بعض المذاهب والفرق	٣٤
أولاً : المشبهة والمجسمة	٣٤
ثانياً : النفاة والمعطلة	٣٤-٤٥
ثالثاً : المؤولة من الخلف	٤٦-٤٧
صفات كثر فيها النزاع	٤٨
١) الاستواء	٤٩-٥١
٢) اليد	٥٢-٥٤
٣) النزول	٥٥-٥٦

الموضوع	رقم الصفحة

انتهيت بفضل الله وحده ومنّه ، من مراجعة «رسالة التوحيد» والتعليق عليها ، سائلاً المولى ، سبحانه وتعالى ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، أن يحسن ختامي ، وختام ذرّيتي ، وأقاربي ، وأحبابي ، حيثما كانوا ، وأنْ يدخلنا الفردوس الأعلى ،بسلام ، يا رحمان .

وسبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

في يوم «الثلاثاء» الثالث - من صفر الخير - لعام ١٤٢٥هـ .

أبو عبدالرحمن

إبراهيم بن حميد الساجر

